



إلى الفرائد الكريمة



الإمام الأكبر
محمود شلتوت



دار الشروق



إلى القرآن الكريم

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

توزيعات: مصر: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - ورقية، والشروق - تلخمين، SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جرجسي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - ورقية، شروق - تلخمين، SHROK UN 93091

إلى القرآن الكريم

للإمام الأئمة
مجموعه شلتوت

دار الشروق

مقاصد القرآن

لقرآن الكريم : آخر كتاب أنزله الله هداية للناس أجمعين : «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » ، وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » ، « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا » .

ومن هنا كان العمل على ما يقرب للناس معناه ، ويفتح لهم باب التفقه فيه ، من أهم ما يجب على القادة والمرشدين . .

وقد رأينا ان نقدم هذه الطريقة التي ترسم الخطوط الاولى للموضوعات التي يتضمنها الربع من القرآن حتى تصبح مقاصده بارزة ومسالك فهمه واضحة ، نتأخذ مكانها من القلب ، وتتجه النفس الى التوسع في التفقه والمعرفة . وسنبدا — ان شاء الله — من أول القرآن ، بحديث نجمل فيه مقاصد القرآن جملة ونشير الى أساليبه التي اتخذها سبيلا للدعوة اليها .



ونرجو ان يكون هذا بمثابة منار يهدي الى معرفة ما هو من مهمة القرآن فيطلب منه ، وما ليس من مهمته فلا ننتظره منه ، ولا نكره آياته عليه . .

وان نظرة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا » لترينا ان مقاصد القرآن تدور حول نواح ثلاث : ناحية العقيدة ، وناحية الاخلاق ، وناحية الاحكام .

فالعقائد : تطهر القلب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطه بمبدأ الروحية الصافية ، وهي تشمل ما يجب الايمان به في جانب الله من صفات الجلال والتهال ، وما يجب الايمان به في جانب الوحي

والرسالات من الملائكة والكتب والنبیین ، وما يجب الايمان به في حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء . .

* * *

والاخلاق : تهذب النفس وتزكياها ، وترفع من شأن الفرد والجماعة ، وتقوى عرى التآخي والتعاون بين بنى الانسان ، وتشمل : الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحلم ، والجود ، والرحمة ، وغيرها مما يحقق في الانسان ثمرة ايمانه بالله وصفاته التي يجب أن يكون عليها عباده .

* * *

أما الأحكام : فهي ما بينه الله في كتابه ، أو بين أصوله من النظم التي يجب اتباعها ، في تنظيم علاقة الانسان بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان ، وتشمل : أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، واليمين ، والنذر ، وما الى ذلك مما يدخل في دائرة العبادات ، التي تغذى الايمان . وتنمى ثمراته الطيبة . وتشمل : أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتبعهما من مهر ونفقة ، ورضاعة ونسب ، وعدة ، ووصية ، وارث ، وما الى ذلك مما يدخل في دائرة الاحوال الشخصية ، أو أحكام الأسرة . وتشمل : أحكام البيع ، والاجارة ، والرهن ، والمدائنة ، وما الى ذلك مما يدخل في دائرة المعاملات المالية . وتشمل : أحكام الجنايات ، والجرائم ، كالقتل ، والسرقه ، والافساد في الأرض ، والزنا ، والقذف ، وما الى ذلك مما يدخل في دائرة العقوبات ، وتشمل : أحكام الحرب والسلم وما يتبعهما من غنائم وأسرى ، ومعاهدات ، وما الى ذلك مما يدخل في دائرة الأحكام الدولية العامة .

مصادر التشريع الاسلامي

وقد عرض بعد هذا كله لمصادر التشريع ، وبين أنها الكتاب والسنة ، واجتهاد أولى الراى ، أرباب العلم بالمصلحة في نواحي الحياة .

كما عرض لأساس الحكومة في الاسلام وهى الشورى ، وجعلها من أخص أوصاف المؤمنين .

أساليب الدعوة

هذه هي الخطوط الأصلية لمقاصد القرآن الكريم . . أما الأساليب التي اتخذها سبيلا للدعوة الى تلك المقاصد فهي :

أولا : الارشاد الى النظر والتدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ، لتعرف أسرار الله في كونه ، وابداعه في خلقه ، وبذلك تمتلئ القلوب ايمانا بوجوده وعظمته عن نظر واقتناع لا عن تقليد وابتداع . وبهذا السبيل كرم الله العقل ، وفتح له باب البحث عن خواص الأجسام وأسرار الكائنات في الأرض ، والسماء ، والماء ، والهواء ، كي ينتفع بها في حياته ، ويستخدمها في التعمير والانشاء .

* * *

ثانيا : قصص الأولين ، أفرادا وأما . الصالحين منهم والمفسدين ، وقد أورد القرآن في ذلك كثيرا مما يثير العظة والاعتبار ، ويرشد الى سنن الله في معاملة عباده ، وهذا هو مقصد القرآن من ذكر قصص الماضين . . فلم يذكره على انه تاريخ يحدد الزمان والمكان والأشخاص ، ويرتب الوقائع ويبين الأسباب والنتائج ، ولم يذكره على انه أساطير تتحدث عن الغرائب والأعاجيب التي يسمر بها الناس في النوادي والمجمعات .

* * *

ثالثا : ايقاظ الشعور الباطني في الانسان فيندفع الانسان بوحى هذا الشعور الى التساؤل عن مبدئه . وعن مادته وعن حياته ، وعن مآله ومصيره ، حتى يصل الى الاعتراف بخالق القوى والقدر ، واضع الأسباب والمسببات ، رب الأرض والسموات ، مدبر الأمر ومصرفه ، وتلك هي الفطرة التي ذكرها الله بقوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

* * *

رابعا : أما الأسلوب الرابع الذي اتخذته القرآن في الدعوة الى مقاصده ، فهو : أسلوب الانذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، وللقرآن في ذلك طريقان :

أحدهما : الوعد والوعيد عن طريق الحياة الدنيا : يعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين في الأرض ، وينذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك ، وتسليط الأعداء .

وثانيهما : الترغيب بنعيم الآخرة الدائم الذي لا ينقطع ، الصافي الذي لا يشوبه كدر . والترهيب من الكفر والافساد في الأرض والطغيان على عباد الله بعذابها الدائم المهيئ .

* * *

هذه مقاصد القرآن الكريم ، وتلك أساليبه في الدعوة ..

فعلينا أن نتجه الى القرآن فنرتل آياته ، أو نسمعها ، ونستخلص أحكامه ، ونعرف أغراضه .. وعسى أن نجد في هذا ما يقرب لنا الأمر ، ويسهل علينا التفقه بالقرآن ، فنعمل به في خاصة أنفسنا ، وأهلينا ، ومواطنينا ، وبذلك نحصل على رضا الله واسعاده في الدنيا والآخرة ..

« والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجر المصلحين » .

محمود شلتوت

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، هي احدى سور خمس في القرآن الكريم بدئت باثبات الحمد لله (١) .

(*) وقد اجملت الفاتحة كل ما فصل في القرآن الكريم من اثبات التوحيد والبعث ، وبيان الطريق المستقيم الذي يسلكه الانسان في تنظيم حياته مع ربه ومع نفسه . ومع الناس : فالجملتان : الحمد لله رب العالمين « ، » الرحمن الرحيم « تثبتان توحيد الله في الخلق والتربية عن طريق الرحمة الواصل اثرها الى عباده . والجمله الثالثة : « مالك يوم الدين » تثبت النشأة الآخرة التي يقع فيها الجزاء على الاعمال . والجملتان : اياك نعبد ، واياك نستعين « تقران مبدا عبادة الله وحده ومبدا عجز الانسان واحتياجه الى معونة ربه ، وتقطعان عليه سبيل التوجه لغير الله بالعبادة والاستعانة .

وجملة «اهدنا الصراط المستقيم» توجه الانسان الى طلب الاحكام التي ينظم بها شأنه من الله سبحانه وتعالى فهو المعلم ، وهو المشرع ، وهو الموفق للعمل بما يعلم وبما يشرع .

الناس أمام شرع الله

وجملة « صراط الذين انعمت عليهم » ترشد الى ان الناس أمام شرع الله وطريقه فرق ثلاثة : فريق عرفوا بالتزام الصراط المستقيم حتى اضيف اليهم ، وعرف بهم ، وكانوا فيه قذوة لغيرهم ، وهم « المنعم عليهم » وفريق جحدوا صراط الله واحكامه عنادا واستكبارا وهم « المغضوب عليهم » ، وفريق متردد بين الظهور بالايمان وبين استبطان الكفر وهم « الضالون » .

* * *

(١) وهي : الفاتحة . الانعام . الكهف . سبا . ماطر
(*) في تفسير الاجزاء العشرة الاولى للقرآن الكريم — راجع كتابنا : تفسير القرآن الكريم الجزء الاول .

وبذلك استوفت سورة الفاتحة العقيدة في المبدأ والمعاد ، وبه
كمال الانسان من الجانب العلمى ، واستوفت طريق العمل الصالح
وبه كمال الانسان من الجانب العملى ، وأشارت الى تاريخ البشرية
الفاضلة في التزام الحق علما وعملا ، والى تاريخ البشرية الفاسدة
في التفكك عن العلم والعمل ، وهذا اجمال كل ما فصل في القرآن
الكريم ، ومن هنا كانت الفاتحة مقدمة الكتاب ، وام الكتاب .

سورة البقرة

الربع الأول :

(*) سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن ، وأول سورة مدنية فيه ، وقد اشتملت على بيان طوائف الناس بالنسبة للانتفاع بالقرآن وعدم الانتفاع به ، وتوجيه الخطاب الى الناس عامة بعناصر الدين ، والتنبيه الى بعض أدلة التوحيد في النفس والآفاق ، والتذكير بمكانة الانسان التي أعد لها في هذه الحياة .

طوائف الناس أمام القرآن

بدأت السورة فنوهت بشأن القرآن الكريم ، وأنه حق لا ريب فيه ، وأن الذين ينتفعون به إنما هم « المتقون » الذين سلمت فطرهم من تسلط المادة المظلمة ، والبصيرة الفاشية ، فأمنوا بالله واليوم الآخر ، وعرفوا حق الله فأقاموا الصلاة ، وحققوا عباده فأنفقوا في سبيله « وما رزقناهم ينفقون » وعرفوا أن رسالته في جميع الأزمان واحدة ، فأمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل من قبل : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

ثم تقابل هؤلاء بطائفة ثانية تبجحت بالعناد ، وتحكمت فيهم النشأة الخسالة ، حتى انسدت عليهم طرق الهداية وصاروا لا يرجي منهم خير ولا إيمان ، وهؤلاء هم الذين آيس الله من إيمانهم نبيه ، وقال فيهم : « سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

ثم ذكرت السورة طائفة ثالثة ، هي شر ما ابتلى به الحق وأهله في هذه الحياة وهم المنافقون ! .. أنكرت قلوبهم كالكافرين ،

(*) يشتمل القرآن على ثلاثين جزءا . وكل جزء يحتوى على أربع والرابع منها من أول سورة البقرة الى نهاية الآية ٢٥ .

ونافقوا ، وقابلوا المؤمنين بوجه والكافرين بوجه . وقد تحدث الله عنهم في الربع الأول بثلاث عشرة آية ، أظهر دخيلتهم وأغراضهم ، ومرض قلوبهم ، وذبذبتهم بين هؤلاء وهؤلاء : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . ثم زادهم توضيحا فضرب لحيرتهم مثلين : مثل من أضاعت حوله النار ثم انطفأت عليه ، وتركته في ظلمة لا يهتدى فيها الى صواب . . ومثل من أخذته السماء ، بمطرها وظلمتها ورعدها وبرقها ، فأخذ يتحين الخلاص مضطربا في شأنه ، خائفا من الهلاك ، ولو شاء الله لذهب بسمعه وبصره ، ان الله على كل شيء قدير .

وأخيرا يوجه الخطاب الى الناس عامة ، فيطلب منهم عبادة الله وتوحيده ، والإيمان برسالة محمد ، ويقرر الجزاء ، وفي سبيل ذلك يلفت نظرهم الى نعمته عليهم بالتربية والخلق ، وبتسخير الأرض ومنافعها ، والسماء ومائها في الحصول على الرزق والثمرات ، ويتحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم أهل الكلام ، ثم يحذرهم — ان لم يفعلوا ولن يفعلوا — النار التي وقودها الناس والحجارة .

وهنا يأتى الأمر بتبشير المؤمنين بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، جمعت لذات المادة والروح ، وهم فيها خالدون .

الربع الثانى :

ضرب الأمثال فى القرآن

(*) من سنة الله فى القرآن أن يستخدم فى البيان ضرب الأمثال تقريبا لما يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب . . فضرب مثلين للمنافقين وضرب الشجرة الطيبة مثلا للكلمة الطيبة . . وضرب الذبابة والعنكبوت مثلا للشفعاء والأولياء الذين اتخذهم المشركون معبودات ليقرّبوهم الى الله .

وقد جاء هذا الربع يقرر أن الله لا يمتنع من ضرب الأمثال بما يوضح ويبين ، دون نظر الى قيمة المثل به فى ذاته أو عند الناس : « ان الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » .

(**) من الآية ٢٦ الى نهاية الآية ٤٣ من سورة البقرة .

أما الناس فهم أمام هذه الأمثال فريقان : فريق يفهم القصد الذي ترمى إليه ، ويكون لها أثرها الحسن في نفوسهم . . وفريق يتعلق باسم الحيوان الذي ضرب به المثل ، ولا ينظر الى المعنى المقصود ، فيتساءل متعجبا ، مستهزئا ، منكرا ، ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ! . . ويتخذ ذلك سبيلا لايقاع الشك في قلوب الناس ، وهذا شأن الفاسقين الذين خرجوا بأنفسهم عن هداية الله في خلقه ، وأساليب البيان التي طبع عليها كل لسان ، هؤلاء الذين كان من خروجهم عن هداية الله ، نقض عهد التوحيد والهداية ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل من رسالته المتتابعة ، والافساد في الأرض ، يسجل الله عليهم الخسران فيقول : « أولئك هم الخاسرون » . ثم يتعجب من كفرهم واستمرارهم على هذا الفسوق مع وضوح دلائل التوحيد والايمان في أنفسهم : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون » ، وفي الآفاق : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم » .

الحكمة في خلق الانسان

ثم يذكر الناس بما اقتضته حكمته في خلق النوع الانساني ، مزودا بقوى العقل والادراك ، وقوى العمل في هذه الحياة : « واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة » . . ثم بما كان من الملائكة في الاستفسار عن الحكمة في خلق هذا النوع ، وهو — على ما يعلمون — ذو شهوة وغضب ، بهما يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء . وعندئذ صور لهم قدرة الانسان — بما ركب فيه — على معرفة خصائص الاشياء ، وطلب منهم الاخبار بها ، فظهر عجزهم عما يقدر عليه الانسان ، فعلموا انهم لا يستطيعون الخلافة في الأرض والتي اختير لها ذلك النوع القدير على معرفة هذه الخصائص والانتفاع بها ، فأمنوا بحكمة الله ، وانقادوا لأمره سبحانه في تعظيم آدم وسجدوا كما أمروا : « واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابنى واستكبر » . نفس شريرة ، عتت عن أمر ربها ، وكانت من الكافرين ، ومنح الله آدم منزلة التكريم ، وجعل له زوجا من نفسه يسكن اليها ، ومكنهما من متعة المادة ، بعد متعة المودة ، ثم اختبرهما — لحكمته البالغة — بالنهي

عن الأكل من شجرة معينة ، ولكن الشيطان الذي أبى أن يسجد وقف لآدم بالمرصاد ، وما زال يغريه وزوجه حتى زلا ووقعا في المخالفة ، وعندئذ أنزلا حيث التكليف ، وحيث العمل ، وحيث المنازعات والمنافسات : «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقرو ومتاع إلى حين » . وعندئذ أدرك آدم خطيئته ، فتلقى من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم ، وقرر له ولذريته نظام حياتهم ، وطرق سعادتهم وشقائهم : « فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

حاجة الإنسان الى الوحي

وعبرتنا من هذه القصة ، ان الله خلق الانسان وجعله مستعدا للعلم والانتفاع بما خلق الله في الكون ليكون خليفة في الأرض ، يعمرها وينميها ، ويكون بعمله مظهرا لرحمة الله بعباده . وليخلق فيه روح المكافحة ، خلقه مستعدا أيضا للتأثر بداعية الخير ، وداعية الشر ، وبين له ان عاقبة التأثر بداعية الخير السعادة المطلقة ، وعاقبة التأثر بداعية الشر الشقاء المطلق . وبذلك كان الانسان في حاجة الى الوحي الالهي يقيه ويحفظه من دواعي الشر ، وعلى هذا المبدأ أرسل اليه الرسل ، وأنزل الكتب تذكيرا بما يسعده ، وتنظيرا مما يشقيه ، فيجب علينا ان نتعرف أنفسنا بغرائزها . وأن نحصنها بهداية الله من كيد الشيطان ، وأن نلتزم ارشاد الله وأحكامه حتى نفوز برضاه ، ونحصل على اسعاده .

دعوة الرسول

مسورة البقرة نزلت بعد أن هاجر المسلمون الى المدينة ، وصارت لهم بالهجرة وحدة خاصة ، وجوار ممن أوتوا الكتاب من قبل . . وقد كان من المرتقب أن يلبي هذا الجوار الجديد دعوة النبي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ، وكانوا يطلبون به قبل مجيئه النصره على أعدائهم ، ولكن خاب الغال وضاع المرتقب ، وحملهم الحسد والبغى على الاعراض والتكذيب والانكار ، فتحدثت السورة عنهم في أربع وثمانين آية ، بدأها الله وختمها ببندهم ونسبتهم الى أبيهم ، يستحثهم على الايمان ، ويذكرهم

بنعمته عليهم : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

الربع الثالث :

انحراف رؤساء بني اسرائيل

(*) ثم بدأ يبيك الرؤساء — الذين يتلون الكتاب ، ونصبوا أنفسهم لتعليم الناس أحكامه — على أنهم يتركون أنفسهم للشهوات والأهواء دون تزكية ولا تطهير مع أنهم في الوقت نفسه يأمرّون الناس بالبر والخير ، ويحكمون لهم بالهدى والإيمان ، أو يحكمون عليهم بالضلال والكفر ، ويرشدوهم إلى الطريق الذي يقودهم إلى الخير في أنفسهم وفي جماعتهم « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون .

ثم يعود فيذكرهم مرة أخرى بالنعم التي أنعم بها عليهم في شخص أسلافهم ويحذرهم يوم العدل والقصاص : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون » .

تذكيرهم بنعم الله

ثم يأخذ بهم إلى الماضي فيذكرهم ببتجية أسلافهم من فرعون ، وقد كان يذيقهم سوء العذاب ، يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ، ويذكرهم بأن أنجاءهم كان بأسلوب الهى لا قدرة للإنسان عليه ، ولا سبيل له في الاهتداء إليه : كأن يفلق البحر وتهيئة طريق لهم فيه حتى إذا ما جاوزوا البحر ونجا جميعهم ، وأتبعهم فرعون وجنوده ، أطبق البحر على فرعون وقومه وغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى : « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » . نعمة مزدوجة ، فضل وقدرة ، أنجاهم وأهلك عدوهم .

(*) من الآية ٤٤ إلى نهاية الآية ٥٩ من سورة البقرة »

ويذكرهم بعنوه عنهم حينما عبدوا العجل في غيبة موسى ،
ويذكرهم بنعمة انزال التوراة التي بها يعرفون الحلال والحرام ،
ويفرقون بين الحق والباطل . ويذكرهم بعلاجهم من اثر الصاعقة
التي أخذتهم حينما تمردوا ، وقالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى
نرى الله جهرة : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » .

ويذكرهم بنعمته عليهم حينما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة ،
وقالوا : « ان فيها قوما جبارين » ، ففضى عليهم بالبقاء في الصحراء ،
تأهين أربعين سنة ، تأديبا واعدادا لذرية صالحة منهم . يذكرهم
وهم في ذلك التأديب بنعمة تظليلهم بالغمام ، يقيهم وهج الشمس ،
وشدة البرد ، ونعمة انزال المن والسلوى ، ابقاء لهم ، ورحمة بهم :
« كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

ويذكرهم بما كان منهم بعد ان خرجوا من التيه ، وبعد ان راوا
نعمة الله عليهم فيه : ذكرهم بتمكينه اياهم من دخول الأرض
المقدسة ، والتمتع بخيراتها ، ويأمرهم بالشكر على النعم ، وتقدير
الفضل والرحمة ، والاعتراف بالذنب . ولكنهم مع هذا كله يبدلون
قولا غير الذي قيل لهم : يستمرثون العصيان ، وينغمسون في
الطغيان ، فينزل عليهم العذاب : « رجزا من السماء بما كانوا
يفسقون » وهكذا سنة الله فيمن يكفر بنعمه فلا يستمع لواجب
الشكر ، ولا يقوم بحق العبودية ، وينزل في افعاله وسلوكه على
حكم الشهوة والهوى .

الربع الرابع :

نزق وطفيسان

(*) والحديث فيه لايزال مع بنى اسرائيل ، يذكرهم بالنعم على
أسلافهم فضلا ورحمة وبالنقم عظة وتأديبا : أقاموا في صحراء التيه
وانقطع عنهم الماء ، فطلب لهم موسى السقيا من ربه ، فيأمره أن
يضرب الحجر بعصاه ، فتتفجر منه عيون الماء ، فيأكلون ويشربون ،
ويأخذ الله عليهم العهد بأن لا يفسدوا في الأرض .

(*) من الآية ٦٠ الى نهاية الآية ٧٤ من سورة البقرة *

يذكركم الله بهذه النعمة ، ويذكركم بتمردهم في طلب الماديات ، كما تمردوا بطلب رؤية الله من قبل : « لن نصبر على طعام واحد » . نزع وطغيان فهم يعلمون أنهم في صحراء لا ماء ولا زرع ، ولا تنبت شيئاً مما يطلبون ، ولكنه العناد والتمرد ، يذهب بصاحبه في الضلال كل مذهب ، ويطلب به الأدنى بدل الأعلى : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ » ، ومع هذا فلکم ما سألتكم : اخرجوا من التيه وادخلوا مصر ، تنبت لكم أرضها ما طلبتم ، وقوموا بحق الله ، واستمعوا لأنبيائه . ولكنهم يصرون على طريقتهم ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ويعصون أوامر الله ، ويعتدون على الحقوق والحرمان ، ولا يزالون كذلك حتى يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، ويبوعوا بغضبه ونكاله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

إيمان وعمل

وبعد ذلك ترشد الآيات الى أن أساس النجاح والخسران ليس في النسبة الى رسول ما ، دون الأخذ بأحكامه وأرشاداته ، وإنما هو في صدق الايمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فمن يؤمن بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر ، ويعمل صالحاً « فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفي هذا ارشاد الى أن القيم الرفيعة لا تحفظ عند الله بالأحساب ، ولا بالأنساب ، وإنما تحفظ بمعان فاضلة تملأ القلب وتظهر آثارها الطيبة في الحياة .

عود الى التذكير بالنعم

ثم تعود الآيات الى تعداد النعم ، فتذكركم بأخذ الميثاق عليهم أن يعملوا بالتوراة وأن يأخذوا أحكامها بقوة ، وأن يتجهوا الى اصلاح أنفسهم بها لعلهم يتقون . .

وتذكركم بآية من آيات الله ، كان جديراً بهم ان يعتبروا بها ، وأن يعلموا أن القادر عليها قادر على أن يقلبها عليهم ، فيصبحوا بها جاثمين ، ولكنهم ظلوا بعدها على شأنهم في العناد والمكابرة ، ومع هذا فقد امتدت اليهم رحمة الله ، وعاملهم بفضله وأحسنه ، ولم يشأ أن يأخذهم بآياته : « فلو لا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم

من الخاسرين » ، ثم تذكرهم بما كان من بعض أسلافهم حينما أمرهم الله أن يتفرغوا في يوم السبت لعبادته فعصوا ، محتالين بطريقة عجيبة وهى أن يحجزوا السمك يوم السبت في حظائر ويتركوه فيها ليأخذوه في اليوم الذى بعده ، فضرب الله عليهم الخزي وسلبهم خصائص الانسانية الفاضلة ، وملا قلوبهم بالطمع والشره ، شأن القردة ، وكانت تلك عقوبة ظاهرة فيهم ، وفي أسلافهم من بعد : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين »

ثم تذكرهم الآيات بموقف من مواقف العناد التى وقفها آباؤهم من قبل ، وكانت سببا في التشديد عليهم : تقع فيما بينهم حادثة قتل لا يعرف فيها القاتل ، ويختلفون على أنفسهم فيه ، فيلتجئون الى موسى ويطالبونه بمعرفته ، فيأمرهم بناء على ارشاد ربه أن يذبحوا بقرة ، فيقابلوا الأمر بالاستهزاء ويسألون عنها : فى سنها ، فى لونها ، فى شأنها كله ، حتى ضيقوا على أنفسهم ، ولم يعثروا عليها الا بعد شدة ، فتذبح البقرة ويضرب القتل بجزء منها ، فيحيا ويخبر بقاتله ، ومع هذه الآية الواضحة القوية تظل قلوبهم قاسية ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وان منها لما يشفق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » .

الربع الخامس :

عناد ونفاق

(*) وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطمعون فى انهم يسارعون الى الايمان به وذلك نظرا الى انهم اهل دين سماوى اصوله هى اصول رسالته وكتابهم يبشر به ويذكر أوصافه ، ولكن الله يعلم منهم خلاف ذلك ، فهم سلالة هؤلاء الذين احتفظ لهم التاريخ بكثير من المساوىء الدينية ، ومواقف العناد والمكابرة لرسولهم ، ولم يعملوا على تطهير أنفسهم مما كان عليه الاسلاف ،

(*) من الآية ٧٥ الى نهاية الآية ٩١ من سورة البقرة .

وقد قص الله على نبيه فيها سبق كثيرا من مساوئهم ، كما قص عليه كثيرا من النعم التي كان يعالجهم بها ، المرة بعد الأخرى ، وفي هذا وجه الخطاب الى النبي وأصحابه باستبعاد ايمانهم ، وبأنهم على عكس ما يطمعون . وأخذ يلفت الأنظار الى أنهم في الانحراف عن الحق يشقون طريق أسلافهم ، ويسيروا على منهجهم ، فمنهم فريق يسمع كلام الله ويفهمه على وجهه الصحيح ، ثم يحرفه ويصرفه الى غير وجهته ومنهم فريق ينافق المؤمنين فيظهر لهم الايمان ، ويذكر ما يجده في التوراة من أوصاف محمد ، وإذا خلا بعضهم الى بعض تعاتبوا وتلاوموا ، وقالوا لبعضهم : « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » .

ومنهم فريق لا يعلمون التوراة الا تلقفا من أفواه الاحبار والرؤساء على حسب ما أرادوا لها من التحريف والكذب والتدليس . هؤلاء الرؤساء الذين يكتبون الكتاب للناس بأيديهم على حسب أهوائهم ، وينشرونه عليهم «ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» . هذه بعض خلالهم ، فكيف تطمعون في سرعة ايمانهم ؟

أكاذيب مردودة

ثم أخذ يتتبع كلماتهم المسمومة التي كانوا يلقونها على مسامع الناس ليشككوهم في صدق الدعوة ، ويصدوهم عن تليبيتها ، شأن المبطلين في محاربة الحق في كل عصر وفي كل مكان ، كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » . « ولن تمسنا النار الا أياما معدودة » وكانوا يقولون : « قلوبنا غلف » مقفلة ، لا تدرك شيئا مما يقول ، ولا تتجه اليه ، فإرد الله عليهم بأن تأقبت العذاب أو خلوده لا يعرف الا من جهته سبحانه ، فهل أنزل عليكم فيه وحيا ، وأخذتم به عليه عهدا : « أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . . .

الجزاء من جنس العمل

وليست المسألة عند الله مسألة محاباة بحب أو بنوة ، وإنما هي ذات مبدء عام ، وحكم عام ، ان تحقق المبدأ تحقق الحكم ، وان لم يتحقق المبدأ لم يتحقق الحكم ، وبنو اسرائيل وغيرهم في المبدأ والحكم

سواء : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . .

هذا هو المبدأ ، ونحن اذا جئنا نطبقه على حالتهم ، وجدناهم قد أخذ الله عليهم الميثاق أن يعتقدوا الحق ، وأن يفعلوا الخير : « واذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالله الدين احسانا » . كما أخذ عليهم الميثاق الا يفعلوا الشر ولا يقتربوا المحرم : « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » . ثم وجدناهم قد نقضوا العهدين ، فتولوا عن فعل الخير ، وتظاهروا بالاثم والعدوان . واذن فبحكم المبدأ ليس جزاء من يفعل ذلك منهم : « الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » .

ايتار الدنيا سبب البلاء

ثم كشف لهم الغطاء عن سبب هذه المخالفة الكامن في نفوسهم ، وأنه هو ايتارهم الحياة الدنيا وزخارفها على الآخرة ، واهمالهم بذلك تعاليم انبيائهم الذين أرسلوا اليهم واحدا بعد الآخر يدعونهم الى الهدى والحق فلم يحفلوا بهم ، واستكبروا عن اتباعهم : « ففريقا كذبتهم وفريقا تقتلون » . أما قولكم : « قلوبنا غلف » فواقع الأمر أن الله لم يخلق القلوب غلفا مقفلة ، وانما خلقها مستعدة لقبول الحق ، وهم بكفرهم ، وضاعوا عليها الغلالة والقفل : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليل ما يؤمنون » ، وها هم أولاء يعلمون أن نبيا سيبعث ، مصدقا لما معهم ، وكانوا يطلبون به الفتح على أعدائهم قبل مجيئه : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » وضاعوا الغلاف على قلوبهم ، وباعوا أنفسهم بالشهوات والاهواء ، وكفروا بالله ورسوله ، لا نزولا على حجة ، وانما بغيا وحسدا ، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده : « فباعوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » . .

وكان من كلماتهم التي يبررون بها عدم ايمانهم ، اذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » فهو الذي نثق بآئه من عند الله ولا شأن لنا بغيره ، فيرد الله عليهم : بأن القرآن

الذى يطلب منهم الايمان به ، هو « الحق » الذى تنشده الفطرة ، ويشهد بصحته الوجدان ، وهو مصدق لما أنزل عليهم ، فاذا كفروا به فقد كفروا بما أنزل عليهم . ثم كيف يقبل منهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ، وقد قتلوا أنبياء الله الذين بلغوهم آياه ؟ ! وكيف يقبل منهم وقد حفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى بعد أن جاءهم بالبينات ، وأنهم قالوا حينما أخذ عليهم الميثاق بما نزل عليهم : « سمعنا وعصينا » ؟ أهذا ايمانهم بما أنزل عليهم ؟ ! « قل بثسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

الربع السادس :

مزاعم باطلة

(*) والحديث فيه لا يزال فى شان بنى اسرائيل المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومناقشة كلماتهم التى كانوا يسمعون بها جو الدعوة ، ويلبسون بها على الناس . وقد كان فيها قولهم : « نؤمن بما أنزل علينا » ، ومعناه أنهم لا يؤمنون بما سواه . فرد الله عليهم بأن القرآن الذى يطلب منهم أن يؤمنوا به هو الحق ، وأنه مصدق لما أنزل عليهم ، فكيف يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ؟ ! وكيف يصدقون فى هذا وقد قتلوا أنبياءهم من قبل ، وحفظ لهم التاريخ أنهم عبدوا العجل فى غيبة موسى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » . ثم يختم الرد عليهم بقوله : « قل بثسما يأمركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين » .

ثم يرد عليهم مزاعم أخرى باطلة ، كانوا يقولون : ان الدار الآخرة خالصة لنا لا ينال نعيمها أحد سوانا ، فنقيل لهم اذن : « فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » . ثم يتحداهم بما لا يعجزون عنه . ويستخرج السبب الواقعى الذى تنطوى عليه قلوبهم من حب الدنيا وشدة الحرص عليها : « ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم » . « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا » . ثم يكشف عن واقع أمرهم : « يود أحدهم لو يعمر ألف

(*) من الآية : ٩٢ الى نهاية الآية ١٠٥ من سورة البقرة .

سنة « خوفا من العذاب الذى يلاقونه ، ولكن ليعلموا ان التعمير فى الدنيا مهما طال امده ، لا يبعدهم عن عذاب الله ، فهو لاحق بهم لا محالة ، ولكل بداية نهاية ، ولكل اجل كتاب : » والله بصير بما يعملون .

ثم كان من كلماتهم فى عدم الايمان بمحمد قولهم : ان الذى ينزل عليه بالوحى هو جبريل ، وان جبريل بينه وبينهم عداوة ، وقد رد الله عليهم بأن جبريل ما هو الا رسول ، نزل به باذنه على قلب محمد ، وبأن ما نزل به جبريل لم يكن مخالفا لما عندهم ، بل كان مصدقا له ، وكان هاديا ومنقذا من الضلال ، واذن فعداوة جبريل ، عداوة لمن نزل به ، وتكذيب منهم لما عندهم ، وعداوة للهداية . والعقل لا يرفض الهداية ايا كان مصدرها . .

ثم يوضح الله الحق فى هذا الشأن ، وهو ان ما نزل به جبريل او غيره من الملائكة على محمد ، او على غيره من الانبياء هو فى حقيقته من الله وبأمر الله ، فمن اتخذ احدا منهم عدوا فقد عادى الله . . ومن عادى الله ، عاداه الله . « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزل به على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » .

الاسلام دين الفطرة

ثم اخذ يطمئن النبى صلى الله عليه وسلم بان ما انزل عليه من آيات بينات واضحة لا يكفر بها الا من فسد طبعه ، وزاغ عن فطرته . فلا تكثر يا محمد بكفر هؤلاء الذين فسقوا عن امرنا ، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم ، وهذا شأنهم فى العهود ، وهو كشأنهم فيما ينزل مصدقا لما معهم . وتكذيبهم لما يصدق ما معهم تكذيب لما معهم ، وبهذا يصيرون كأنه لم ينزل عليهم شيء ، وكأنهم لا يعلمون .

ما كفر سليمان وما ضل الملكان

فبذوا هداية الله قديمها وحديثها ، واخذوا يصرفون الناس عن

النظر في الحقائق بالآوهام والأكاذيب ، التي كان يخرعها المردة
المفسدون عن ملك سليمان ، وعما أعطاه الله للرجلين الصالحين
ببابل هاروت وماروت . .

كانوا يخرعون أن ملك سليمان أساسه السحر والشعوذة ،
وأن الملكين عندهما أشد أنواع السحر التي تفرق بين المرء وزوجه ،
ولمثل هذه الأحاديث شيوع ، فشاعت بين الناس حتى تأثروا بها ،
واتخذوها ديدنهم في الحياة ، وشغلوا بها حتى صرفتهم عن كل
خير وفضيلة . وقد بين الله الحق فيما اختلقوا على سليمان وعلى
الملكين ، وقرر أن سليمان ما كان ساحرا وما كفر بنعمة ربه ،
إنما كان هاديا ورسولا ، وأن الملكين : الرجلين الصالحين ما كانا
بمفسدين في الأرض ، ولا بمدلسين على الناس ، وإنما كانا
ناصحين أمينين : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه
فلا تكفر » ، ولكن المفسدين أنكروا على سليمان النبوة والملك
الإلهي ، كما أنكروا فضل الله على الرجلين الصالحين في معرفة
خصائص الأشياء وأسرار النفوس ، وزعموا أن ما عندهما
وما عند سليمان سحر وشعوذة ، وبهما بلغا ما بلغا ، فاتبعوه على
ما رسموا وتخللوا ، وأخذوا ينفثون به في الروابط البشرية لتخل ،
والصلوات الانسانية لتتقطع : « يفرقون به بين المرء وزوجه » ،
بين الوالد وولده ، بين الأخ وأخيه ، بين الصديق وصديقه ،
وبالتالي بين الرسول وقومه ، وبين الناس وهداية الله : « وما هم
بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ،
ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به
أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وعبرتنا من تلك القصة أن نعنى بالحقائق النافعة ، ولا نشغل
أنفسنا بالآوهام والخيالات .

ثم تحذر الآيات المؤمنين مخاطبة النبي ببعض الكلمات التي كان
يستغلها المعاندون في الاستهزاء بالرسول ، وتأمرهم بالسمع
والطاعة وتتوعد المستهزئين بالعذاب الاليم . ثم ترشد الآيات الى
أن عناد الكافرين منشؤه كراهم أن ينزل على المؤمنين خير من
ربهم ، ولكن الله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الربع السابع :

المعجزة شأن من شئون الله

(*) والحديث فيه أيضا لا يزال في بنى اسرائيل ، وقد كان من كلماتهم في التأثير على الناس وصرفهم عن الايمان بمحمد ، انه لم يأت بمعجزة تدل على انه رسول من عند الله ، وكانوا يطلبون معجزات مثل معجزات موسى وعيسى . . وكان العرب مثلهم في هذا الشأن ، فرد الله عليهم بأنه لا يترك معجزة من المعجزات السابقة التي يذكرونها ويطلبون مثلها ، او التي انساها اياها فلا يذكرونها ، الا أتى لرسوله محمد بمعجزة هي خير من المعجزات السابقة ، او مثلها على الأقل في الدلالة على صدقه : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

فالمعجزات شأن من شئونها ، نختار منها ما نعلم انه أوفق للمصلحة ، واقدر على الاقتناع وانسب للعصر . ثم أخذ يذكروهم بسؤال أسلافهم لموسى ، وحذروهم أن يسألوا محمدا كما سأل موسى من قبل ، وأشار الى أن هذا عدول عن الايمان الى الكفر : « ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » . وفي هذا تحذير لضعاف الايمان من المؤمنين أن يسمعوا لكلامهم ، أو يسيروا في طريقهم وقد أرشدتهم الى أن هؤلاء المشككين يودون أن ترجعوا كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاحذروا التأثير بهم ، ولا يحملنكم بغضهم اياكم أن تعبدوا عليهم : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » ، وعليكم بتطهير أنفسكم بالصلاة ، وتقوية روابطكم بالزكاة : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

ثم يعود فيذكر بغرور هؤلاء المكذبين ، وزعمهم انه لن يدخل الجنة الا من كان منهم ، ويطالبهم ببرهان ذلك ان كانوا صادقين . ويقرر أن أساس الأجر عند الله هو اسلام الوجه لله والاحسان الى عباد الله : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(*) من الآية ١٠٦ الى نهاية الآية ١٢٣ من سورة البقرة .

مساك مخرب

ثم أخذ يطمئن المؤمنين بأن خطة هؤلاء في التشكيك والتكذيب والانكار ، ليست شأنًا خاصًا بكم ، وانما هي شأنهم حتى فيما بينهم : ينكر بعضهم على بعض ، ويجهل بعضهم بعضًا ، والكتاب بين أيديهم ، يزعمون أنهم يؤمنون - ، وانهم أرباب الدين الخالد . وبهذه الخطة الفاسدة التي فرقّت كلمة الله اعتدى بعضهم على بعض ، وتحاربوا حتى خربوا أماكن العبادة ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وتقام عبادته . وما كان لهم أن يختلفوا في مثل هذا الشأن ، ولا أن يعتدى بعضهم على بعض بسببه ، فله المشرق والمغرب ، يعبد في كل مكان : « فأيما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » ولم تقف بهم هذه الخطة الفاسدة عند حد الاعتداء عليكم ، أو اعتداء بعضهم على بعض ، بتخريب أماكن العبادة والتقديس ، وانما امتدت أهواؤهم الى الجانب الأقدس ، فزعموا أن لله ولدا ، وطلبوا أن يكلمهم أو يخصهم بآية من عنده ، فيرد عليهم بأن له ما في السموات والأرض ، وبأن كل من فيها قانت له وخاشع ، وأنه خالقهما ومدبرهما ، وأنه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون . واذا كان هذا شأنه في الملك والتصرف والايجاد ، فكيف يكون له ولد ينفصل منه — وينسب اليه بالجزئية التي هي أساس البنوة والأبوة : « لم يلد ولم يولد » . يرد عليهم في طلب مكالمته اياهم بأنه طلب التعنت والاعراض عن الآيات : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

توجيه ونصح

ثم وجه الخطاب الى النبي صلى الله عليه وسلم بتأكيد ارساله بالحق بشيرا ونذيرا ، وبأنه غير مسئول عن كفر من كفر ، واعراض من اعرض ، وبأن هؤلاء لا يرضون عنك حتى تترك ما أنت عليه من رسالة ربك وتتبع ملتهم . ثم تحذر الآيات اتباعه في شخصه أن يتبعوا أهواءهم ، ويتأثروا بهم ، بعد ما ظهر لهم من العلم والهدى ، وتنذرهم اذا هم سلكوا طريقهم بحرمانهم من ولاية الله ونصرته : « مالك من الله من ولى ولا نصير » .

هذا شأن الكثرة الساحقة من هؤلاء الذين كنت يا محمد تطمع في ايمانهم وسرعة تلبيتهم قد بيناه ، ومع هذا فففيهم من يرجى خيره ، وهم الذين يثلون الكتاب حق تلاوته ، ويتفهمون حكمه وأسراره ، فأولئك هم الذين يصح أن تعلق بهم رجاء الايمان ، وتطمع في تلبيتهم دعوتك : « الذين آتيناهم الكتاب يتلوننه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به » أما الأكثرون من الرؤساء المعاندين ، والمقلدين الجاهلين ، فأولئك هم الخاسرون ، الذين لا ينبغي أن تكثر بهم ، ولا أن تطمع في ايمانهم ..

ثم تعود الآيات وتستحثهم على الايمان ، وتناديهم كما نادتهم أولا بنسبتهم لاسرائيل ، نبي الله يعقوب ، وتذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأنه لا يليق بمن كرمه ربه ، ومضله بالحكم والنبوة ، أن يكون حظه من هداية الله الجحود والانكار . وفي سبيل هذا تنذرهم كما أنذرتهم من قبل باتقاء يوم الحساب والجزاء : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » ..

سورة آل عمران

الربع التاسع :

أصيب المسلمون في غزوة أحد بما سجلته سورة « آل عمران » وسمعوا بعد الهزيمة من الكفار والمنساقين كثيرا من كلمات الشماتة والتخذيل : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » ، « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، « لو أطاعونا ما قتلوا » .

جزاء الشهداء

(*) وقد أرشد الله في هذا الربع الى حملة من العلاج الذي يحفظ على المسلمين قوتهم المعنوية من التأثير بكلمات الشماتة والتخذيل . وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بقتلى أحد ، الذين جادوا بأنفسهم في سبيل الله ، انهم ليسوا — كما يظن هؤلاء — أمواتا توارت أجسامهم ، وطويت صفحاتهم ، وذهبوا الى حيث لا يذكرون ، بل لقد ارتقى بهم ايمانهم واستشهادهم الى العندية القدسية ، تشرق عليهم فيها أنوار التجليات ، ويتمتعون بما أعد لهم من الفضل الالهي : « فرحين بما آتاهم الله من فضله » ، وفرحين بما رأوا من المكانة التي أعدت لأخوانهم الذين تركوهم في الدنيا ، يشقون طريقهم بايمان مثل ايمانهم ، وجهاد مثل جهادهم . تركوهم يستجيبون لله وللرسول ، غير مكترئين بأراجيف المرجفين ، ولا فتن الضالين المكذبين ، بل قالوا : حسبنا الله ، واتبعوا رضوانه . وما زادتهم الفتن والأراجيف الا ايمانا على ايمان ، وقوة على قوة : « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وكان مما أرشدوا اليه فيما يختص بهؤلاء المرجفين ، ان ارجافهم — وهم الشياطين المفسدون — لا يؤثر الا على مثل أتباعهم ضعاف الايمان ، فاسدى العقيدة ، وليس له سلطان على المؤمنين الذين يملأ الايمان قلوبهم فيحفظها من التأثير بالأراجيف

(*) من الآية ١٧١ الى نهاية الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

والفتن ، وسينزل بهؤلاء المفسدين الجزاء الذى يستحقون : « انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » . .

عبر من الهزيمة

وكان مما أرشدوا اليه حكمة الهزيمة التى أصيبوا بها وهى :
 أن الله يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرياب القلوب الفاسدة ،
 وليس من شأنه فى ذلك أن يوحى بما فى الضمائر من خبث ونفاق ،
 وانما شأنه وسنته أن يصطفى رسلا يدعون الى الايمان وفى ظل
 السلم يختلط الكاذب بالصادق ، والخبث بالطيب ، فيجرى الله
 أحداثا ويسوق شدائد ، تميز الخبيث من الطيب وتطهر جماعة
 الايمان الحق ، فيوافيهم بالنصر والتأييد : « فآمنوا بالله ورسله
 وأن تؤمنوا وتتقوا فلكم اجر عظيم » .

عاقبة البخل

وكان مما أرشدوا اليه أن هؤلاء الذين يقبضون عن الانفاق
 فى سبيل الله ، ويبخلون بما آتاهم الله من فضله : « سيطوقون
 ما بخلوا به يوم القيامة » ويكون حملا ثقيلا فى أعناقهم لا يستطيعون
 التخلص من تبعاته ، وسيرجع ما بأيديهم الى الله الذى له ميراث
 السموات والأرض ، والذى انعم عليهم به من فضله ليبلوهم
 أيشكرون أم يكفرون .

وبهذه المناسبة عرضت الآيات للتحقير من شأن كلمات كان يلقيها
 الأعداء بقصد الحط من مكانة الرسالة وصاحبها عليه الصلاة
 والسلام : « ان الله فقير ونحن أغنياء » ، « ان الله عهد الينا
 ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » ، وتتوعدهم
 بالعذاب الليم ، وتأمّر الرسول بأن يرد عليهم بقوله :
 « قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان
 كنتم صادقين » ؟

تسليّة

ثم تأخذ فى تسليّة الرسول فى تكذيب القوم له ، بأن اخوانه
 السابقين قد كذبتهم أممهم من قبل بعد أن جاعوهم بالبينات ، وكان

جزاء الرسل لما صبروا النصر والتأييد ، وجزاء القسوم المكذبين الخزي والدمار . وتلك سنتنا مع الأولياء والأعداء ، وستنقضي هذه الدنيا وتذهب كل النفوس الى بارئها وتوفى كل نفس ما عملت ، ويرى المؤمنون الصادقون ما أعد لهم من نعيم دائم ، ويرى الكافرون المكذبون ما أعد لهم من عذاب أليم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

الرابع العاشر :

اعداد واستعداد

(*) بعد أن أرشد الله المؤمنين الى حكمة الهزيمة التي أصابتهم في أحد ، لفت أنظارهم الى أن ما أصابهم في تلك الغزوة ليس آخر ابتلاء يصيبهم من أعدائهم ، وأكد لهم أنهم سيختبرون في مستقبل حياتهم بالشدائد في الأموال والأنفس ، بالفعل وبالقول من فريقى المعارضين لهم ، وسيرون أذى كثيرا . . فلا يظنوا أن الأمر يقف عند حد هذه الغزوات الأولى ، فمرحلة الجهاد طويلة ، وتضحيات النصر كثيرة ، فليوطنوا أنفسهم عليها ، ويستعينوا على تحملها بالصبر والتقوى : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

ثم أخذ يذكرهم بسوء عاقبة أعدائهم بجرائمهم التي اقترفوها وصدوا بها الناس عن الإيمان بالحق ، فهم قوم نقضوا ميثاق الله ، ونبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، وفرحوا بما ارتكبوا في جنب الله ، وعملوا جهدهم على أن يعتقد الناس فيهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وحملوهم بذلك على أن يعظموهم وأن يسمعوهم لدعواتهم في التآليب ضد الحق الذي يدعو اليه الرسول وصحبه المخلصون : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يجهدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم »

(*) من الآية ١٨٦ الى آخر سورة آل عمران .

الأمر والتدبير لله وحده

وبعد أن تفرغ الآيات من ارشاد المؤمنين الى ما يجب عليهم من الصبر والتقوى في مواقف الجهاد والاخلاص في الدعوة ، والى ما سينزل بخصومهم من عاقبة كيدهم وطغيانهم ضد الحق واهله ، تأخذ في تقرير ربوبية الله ، وأنه صاحب الأمر والملك والتدبير في السموات والأرض ، لا شأن لأحد فيهما سواء . فهو القادر على الوفاء بما وعد المؤمنين ، وما توعد به الكافرين : « والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير » .

وجوب النظر في آيات الله

ثم تأخذ الآيات في فتح أبواب العظة والاعتبار ، ودلائل القدرة للذين خلصت قلوبهم من الأهواء والشهوات ، وتحكم التقاليد الباطلة : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الالباب » .

ثم تصف اولى الالباب بصفتين : هما الحبل المتين الذي يصل الانسان بربه ويقيه شر المآثم والطغيان في هذه الحياة : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » أى يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته في جميع أوقاتهم ، وفي جميع شئونهم ، ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم في خلق السموات والأرض وما فيهما من اتقان وابداع ، وعجائب وأسرار ، فليس ذكرا ينطلق به اللسان ، ولا يدفع اليه الجنان ، انما هو ذكر ينبع من القلب الى سماء الرب ، فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه » تنزيها لك عن الباطل في خلقك وفعلك وحكمك : « فقنا عذاب النار » بدوام توفيقك وعنايتك . ثم يذكرون مال غضبه سبحانه على الذين ظلموا الحق فأنكروا ربوبيته وكفروا برسالته ، فيكون دعاؤهم : « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيتاه ، وما للظالمين من أنصار » . ثم يؤكدون تليبيتهم لدعوة الحق التي ارتضاها لعباده على لسان نبيه ، ويلتمسون منه المغفرة والانعام عليهم بما وعد المؤمنين المخلصين فيكون قولهم : « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا

وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد ..

* * *

هذا موقف الذاكرين لربهم ، المفكرين فيما خلق ودبر ، عرف منهم الصدق في الايمان والذكر والنكير والتنزيه : « فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى ، بعضكم من بعض » لا تفاضل بينكم الا بالعمل والتقوى ، وقيام كل بما طلب منه .

ثم يذكر بعض اسباب النعيم وتكفير السيئات ، والمثوبة الدائمة ، ويخص اهم ما يطلب من المؤمن وتمت ثورة الكفر على الايمان ، فيذكر الهجرة والاخراج من الديار ، والايداء في سبيل الله ، والقتال والقتل ، ويجعل هذه أبرز دلائل الايمان ، واقرب ما يوصل الانسان الى ثواب الله ورضوانه : « والله عنده حسن الثواب » .

تسليية وتوصية

ثم اخذ يسليهم عما كلفوه من مشاق الجهاد ، ويحذرهم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد ، ويؤكد لهم انه متاع قليل ، ثم ماواهم جهنم وبئس المهاد ..

اما المؤمنون الذين اتقوا ربهم فماواهم جنات تجري من تحتها الانهار .

ثم يرشد — احقاقا للحق — الى ان من اهل الكتاب ، الذين يحاربونكم ويناصبونكم العداء ، طائفة تؤمن بالله ، وتؤمن بما انزل اليكم وما انزل اليهم ، خاشعين لله لا يؤثرون دنياهم الفانية على رضا الله الباقي . ويبين ان هؤلاء لهم اجرهم عند ربهم ، وفي هذا اطماع لغيرهم من اهل الكتاب في ان يعدلوا عن موقفهم من المؤمنين ، وان ينهجوا منهج اخوانهم الخاشعين لله ، المحافظين على حدوده .

ثم تختتم السورة بهذه الوصية الفذة ، التى بها يتحقق الخير كله ، وبها يعظم النصر ويحق الجزاء ، ويتم الفلاح : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

سورة النساء

الربع الأول :

(*) سورة النساء أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وهي سورة مليئة بالأحكام التي ينظم بها المؤمنون شئونهم الداخلية ، والأحكام التي يحفظون بمراعاتها وتنفيذها كيانهم واستقلالهم ، ويدفعون بها كيد الكائدين ، واغارة المحاريبين ، وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ، ولذلك أطلق عليها « سورة النساء الكبرى » في مقابلة « سورة النساء الصغرى » التي عرفت في القرآن بسورة « الطلاق » .

الناس من أصل واحد

وقد افتتحها بنداء الناس كافة ، وأمرهم جميعا بتقوى الله ، وذكرهم في سبيل ذلك الأمر بنعمة الخلق والإيجاد من نفس واحدة « خلق منها زوجها » وكان منها الناس جميعا رجالا ونساء ، وبذلك جمعهم أصل واحد : أبوة واحدة ، أمومة واحدة ، وربطت بينهم رحم واحدة ، هي رحم الانسانية العامة . ثم أعاد الأمر بتقوى الله الذي إليه تفرع القلوب ، وتتوثق العلائق ، كما أمرهم بتقوى الأرحام التي بينهم والتي ترجع الى أصل واحد ، كانت منه الشنوعوب ، والقبائل ، والأسر . وقد مهدت بهذا كله للأحكام التي وضعها الله للناس ليحفظ قلوبهم وضعيفهم .

رعاية اليتيم

ومن هنا ذكرت أحكام اليتيم الذي فقد أباه ، والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، والنساء اللاتي تنتظمن ولاية الرجال ، ففى

(*) من أول سورة النساء الى نهاية الآية ١١ .

اليتامى أمرت بحفظ أموالهم حتى يتسلموها عند رشدهم كاملة غير منقوصة ، وحذرت الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة « ولا تبدلوا الخبيث بالطيب » . أو عن طريق الخلط : « ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم » . ووصفت ذلك بأنه اثم كبير . كما أرشدت الى ترك الزوج من اليتامى عند خوف استغلال الحياة الزوجية في أكل أموالهن ، وعدم العدل معهن . وأرشدت الى أن لهم في غيرهن من النساء متسعا للزوج منهن ، واحدة ، ومثنى ، وثلاث ، ورباع .

وذكرتهم في هذه الحالة أيضا بالعدل بين النساء حتى اذا لم يأنس الرجل من نفسه القدرة على العدل بين المتعدادات من الزوجات ، وجب عليه الاقتصار على واحدة ، تنزيها لنفسه ، واستبراء لدينه : « ذلك أدنى ألا تعولوا » . .

تشريع المهور

وبهذه المناسبة أمرت باعطاء الزوجات مهورهن التى أطلق عليها « نحلة » أى فهي ليست أجرا ، ولا ثمنا ، وإنما هى عطاء يوثق المحبة ، ويربط القلوب ويديم العشرة .

حفظ أموال اليتامى والسفهاء

وفي جانب السفهاء وهم الصغار الذين لا يعقلون والمجانين والمعاتية ، وكل من لا يحسن التصرف ، حذرت دفع الأموال اليهم إحتفاظا بها لهم ، وإبقاء عليها للأمة . فهي فى الواقع مال الجميع . وأشارت الى تنميتها واستثمارها عن طرق التنمية والاستثمار المشروعة ، وجعلت رزقهم وكسوتهم من أرباحها لا من أصولها ، كما أمرت بمعالجة السفهاء من السفه بارشادهم الى الحكمة وحسن التصرف وفائدة حفظ الأموال . وأمرت بمثل ذلك فى جانب اليتامى : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم فى المعاملات حتى يتعودوا البيع والشراء . ثم حددت الوقت الذى تسلم فيه الأموال اليهم وهو وقت الرشد ، بعد أن يصلوا الى سن البلوغ ، فمن لم يبلغ لا تسلم اليه أمواله ، ومن بلغ ولم يرشد لا تسلم اليه أمواله . وكانت تلك التعاليم مصدرا لقانون المجالس الحسبية فيما يختص

بالحجر على السفية ، والقوامة عليه وعلى اليتيم . ثم أباحت الآية للأوصياء أن يأخذوا من أموالهم بقدر كفايتهم إذا كانوا فقراء : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف » . ثم ختمت الآيات هذه الأحكام بتهديد الأوصياء في ابنائهم الذين يتركونهم في كفالة غيرهم ، ليفعلوا مع أبناء غيرهم ما يحبون أن يفعل الغير مع ابنائهم ، كما هددتهم بالعذاب الأخرى الذى صورته الآيات بأقوى ما يقلع من النفس جشعها : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » ، « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا »

الارث فى الاسلام

وقد كان أهل الجاهلية لا يرثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون لا يرث الا من طعن بالرماح وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ، فابطل الله ذلك وجعل الميراث بسببين اثنين : النسب والزوجية ، وبهما عم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، وجاء فى ذلك على وجه العموم .

أولا : قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » . .

ثم جاءت آيات الربع الثانى وفيها التفصيل والتصريح بما يعم الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والأزواج والزوجات ، ثم أرشدت الآيات الى مبدأ له أثره العظيم فى تطييب نفوس الذين يحضرون القسمة والتوزيع من الفقراء والمساكين والأقارب الذين لا يرثون ، « وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » .

وهذه الآية مستند قوى لمن أراد لضريبة التركات مستندا الهيا كريما من كتاب الله ووحيه ، أم المبادئ التى روعيت فى توزيع التركات وتقسيم الميراث ففى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . »

الربع الثانى :

تفصيل الميراث

(*) بين الله فى هذا الربع ، وفى آخر آية من السورة ،
الوارثين والوارثات ونصيب كل وارث بالوصف الذى قرره الله
سببا للاستحقاق ، فذكر الارث بالبنوة ، وبالأبوة ، وبالأمومة ،
وبالزوجية ، وبالأخوة وأهل اسندقاق الارث بالتبني الذى كان
معروفا عند الجاهلية . وقد جاء ذلك كله فى ثلاث آيات : « يوصيكم
الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين . . . » ، « ولكم نصف ما ترك
أزواجكم . . . » ، « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة . . . »
وفى هذه الآيات الثلاث بين ميراث الأبناء : « للذكر مثل حظ الأنثيين
فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها
النصف » وميراث الوالدين : « ولأبويه لكل واحد منهما السدس
مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه
الثلث ، فإن كان له أخوة فلأمه السدس » . وميراث الزوج :
« ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد
فلكم الربع مما تركن » . وميراث الزوجة : « ولهن الربع مما تركتم
إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » .
ولا يخفى ما فى تقرير الارث بالزوجية من تركيز للأسرة على أساس
قوى فى تبادل التعاون والشعور بالمسؤولية المشتركة ، حتى كأن
الزوجية نوع من النسب والقرابة الأسرية ..

ميراث الأخوة

أما ميراث الأخوة فيتبع جهة الأخوة ، فميراث أخوة الأمومة
ذكر بقوله : « وإن كان رجل يورث كلالة (من لا ولد له ولا والد)
أو امرأة ، وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا
أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث »

وميراث الأخوة الأشقاء ، أو لأب ذكر فى الآية الثالثة التى ختمت
بها السورة : « إن أمروا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف

(*) من الآية ١٢ الى نهاية الآية ٢٣ من سورة النساء .

ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد ، فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين .

وجدير بالمؤمنين اذا قرعوا هذه الآيات ان يتدبروا قوله تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم » ، وقوله : « وصية من الله » ، وقوله : « يبين الله لكم أن تضلوا » وقوله : « تلك حدود الله » ، وقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » جدير بهم أن يتدبروا تشديد الله في المحافظة على احكام الميراث كما بينها بيانا شافيا ، ليس محل اجتهاد ، ولا قابلا للتغيير ، فلا يتحدث منهم متحدث بالاستظهار على تشريع الله ، ولا تغيير احكامه ، وكتاب الله بين واضح ، يثله الصغير والكبير ، ويعرف حكمه الفقيه وغير الفقيه .

الارث بعد قضاء الديون وتنفيذ الوصايا

وقد صرحت الآيات بأن تقسيم التركة على المستحقين انما يكون بعد قضاء الديون ، وتنفيذ الوصايا التي لم يقصد بها حرمان مستحق ، أو اizard وارث ، ومنه يعلم بطلان التصرفات التي تجيء على اساس من حرمان بعض الورثة ، كعادة حرمان الاناث بالبيع الصوري ، أو بالوقف الذي أراح الله الناس منه : « من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار ، وصية من الله والله عليم حلیم » .

حفظ الاعراض

ثم تنتقل الآيات الى نوع من التأديب لمن يرتكب الفاحشة من الرجال والنساء وهو من قبيل التنبيه على الواجب بعد التنبيه على الحق : ففي فاحشة النساء : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا » . وفي فاحشة الرجال : « والذان يأتيانها منكم فآذوهما » .

تعزير يؤدب به النساء أو الرجال في فعل الفاحشة الخاصة بالجنس حتى يتوبوا ، والتوبة مقبولة عند الله على وجه اليقين اذا فعل الذنب بدافع من الشهوة أو الغضب ، وسارع المذنب الى

الاقلاع والرجوع الى الله اما من يفعلها ويرجى التوبة الى ان يحضره الموت ويستشعر مقدمانه ، فنوبته مرغوضة قطعاً ، وهي كتوبة الذين يموتون وهم كفار . . اما توبة الذين يفعلون السيئات عن ألف واطمئنان ، ثم لا يتوبون عن قرب منها ، فالآية لم تصرح بحكم الله فيها ، فهو اليه ان شاء قبلها وغفر ، وان شاء رفضها وعاقب ، فليكن المؤمن منها على وجل : « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن » .

تحذير من عادات جاهلية

ثم تعود الآيات فتحذر من بعض العادات الجاهلية التى كانت تعامل بها النساء : كان الرجل يرث نساء أقاربه ، ويتخذها كالمتاع لياخذ مالها . وكان يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذى دفعه لها ليتزوج به غيرها ، وفى هذا وذاك اجحاف ايما اجحاف بالضعيف الذى لا يملك ان يدفع عن نفسه ، وفيه تعريض للحياة الزوجية للاضطراب والتحلل ، وفيه اهمال لحق الرحم الانسانى العام ، وفى ذلك يقول الله : « لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها » ويقول : « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .

الربع الثالث :

المحرمات من النساء

(*) والكلام فيه ، لا يزال فى الاسرة ، وفيما يختص بتكوينها ، وترشد الآيات هنا الى اصناف لا يحل التزوج بهن ، ولا تكوين الاسرة منهن ، وذلك لما بينها وبين الرجل من صلات لا ينبغى تعريضها للفساد ، ويجب ان ترفع عن مزالق الحياة الزوجية . ومن هنا حرم التزوج بحلائل الآباء ، وقد كان العرب يفعلون ذلك ، وقال فيه

(*) من الآية ٤٤ الى نهاية الآية ٣٥ من سورة النساء .

القرآن : « انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وحرّم التزوّج بالأمّ وان علّت ، والبنت وان نزلت ، والأخوات ، والعمّات ، والخالات ، وبنت الأخ ، وبنت الأخت ، وحرّم بسبب طارئ وهو الرضاع المكون للبنية مثل ما يحرم بالقربا . واقتصرت الآية على الأمّات والأخوات ، وجاء في السنة الصحيحة : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وحرمت أم الزوجة وان لم يكن الرجل دخل ببنتها ، وحرمت بنت الزوجة اذا كان الرجل قد دخل بأمها . وحرمت حلّائل الأبناء الذين هم من الأصلاب ، وحرّم تحريما مؤقتا الجمع بين الأختين ، ومن في معنهما ، كالمرأة وعمتها وخالتها ، وحرمت المتزوجات واستثنت الآية منهن المهاجرات المؤمنات اللاتي تركن أزواجهن الكفار ، وتبين صدق إيمانهن : « فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حلّ لهن ولا هم يحلون لهن ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا آتينوهن أجورهن » .

ثم صرحت الآيات بحل ما وراء هذه المحرمات ، مشيرة الى فائدة الزواج من احصان الرجال والنساء ، والبعد عن المسافحة والمخادنة كما أوجبت بذل المهور . وأشارت الى لزوم تخير الزوجات من العناصر الطيبة وهي الحرائر المؤمنات ، ومنعت التزوّج من غيرهن الا عند العجز مع خوف العنت والمشقة ، والوقوع في الفاحشة ، ومع ذلك فقد قال الله تعالى : « وأن تصبروا خير لكم » . وذلك محافظة على البيئة الصالحة التي يكون منها النسل ، ويتربى فيها .

النهي عن اكل اموال الناس بالباطل

ثم عرضت الآيات بعد ان أرشدت الى الهدف من هذا التشريع وهو الهداية الى سبل السعادة والبعد عن حياة الشهوات والمفاسد ، عرضت الى العنصر الثاني في حياة الأسر والجماعات وهو « المال » فنهت عن أكله بالباطل ، والباطل كل ما لم يكن سببا مشروعاً في حل الأموال كالسرقة ، والغصب ، والرشوة ، وأجرة البغاء ، والربا ، وما الى ذلك مما نهى الله عنه وله اثره السيئ في سلامة المجتمع . ولما كان الاعتداء على المال ، من وسائل الاعتداء على النفس جاء في هذا المقام قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وتوعدت الآيات بأشدّ العذاب من يعتدي على أخيه في ماله أو نفسه ، كما وعدت بتكفير صفائر الذنوب اذا ما اجتنبت هذه الكبائر : « ان تجتنبوا

كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما .
ولما كان معظم اسباب الاعتداء ، تطلع المقل الى ما بيد الكثير ،
وتمنى ان يكون ما في يده غيره في يده نهى الله عن ذلك وبين ان
لكل كاسب وعامل ثمرة عمله وكسبه فليستغل كل انسان مواهبه
وتقدره في الكسب والعمل ، ولا يتطلع الى شيء غيره : « ولا تتمنوا
ما فضل الله به بعضكم على بعض . للرجال نصيب مما اكتسبوا ،
ولللنساء نصيب مما اكتسبن . واسألوا الله من فضله » .

اما المال الذى يورث ولا يكتسب بالعمل فقد بينت الآيات
المسنحة فيه وانصباؤهم على حسب ما يعلم الله من مصلحة
عباده ، وهم اصحاب القرابة والزوجية ، فحافظوا على قاعدة
الكسب ، وحافظوا على قاعدة التوزيع ، ولا يعتد بعضكم على بعض
لا في كسبه ، ولا في ميراثه : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان
والاقربون والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم » . .

قوامة الرجل

ولما تضمن تشريع الله للرجال والنساء تفاوتاً في الأعمال
والانصباؤ ، وكان ذلك مبعثاً لفكرة التسوية عند من لا يحكمون
الطبيعة ولا يفهمونها ، بينت الآيات ان الحكمة في ذلك ترجع الى
طبيعة كل من الرجل والمرأة . فكل الرجل ، بما له من قوة ، بالجهد
والاعمال الشاقة ، ومنع بما عليه من تبعات مالية وغيرها نصيباً
اكثر من نصيب المرأة ، وبهذا وذاك كانت له القوامة عليها :
« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض
وبما أنفقوا من أموالهم »

معنى قوامة الرجال

ثم ارشدت الآيات الى ان تلك القوامة ليست قوامة استعباد
وتسخير وانما هي قوامة رئاسة ونصح وتاديب ، كالتي بين الرجل
وابنائه ، والراعى ورعيته . ومن هنا لم يكن لتلك القوامة اثر بالنسبة
لصنف الصالحات القانتات ، وانما كان اثرها بالنسبة لمن يظن فيها
النشوز والانحراف ، وبها كان الوعظ والتاديب الذى يجرى فيها بين
الرجل وابنائه : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » . وكان
اذا ما اشتد النشوز ، ووصل الى الشقاق والخلاف الحاد ، انتقل
العلاج من التاديب الذى يباشره الزوج الى التحاكم عند الأهل والاقارب

الذين يهمهم شأن الزوجين ، ويعز عليهم أن تتدهور الأسرة ، ويتشرد الأطفال . . . وبقدرة نية المحكمين ، وأخلاصهم في ارادة بعث الحياة الطيبة بين الزوجين ، يسدد الله خطاهم ، ويمنحهم من الوسائل ما يعيدون به الى البيت هدوءه واستقراره .

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ، ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا »

الربع الرابع :

الاحسان في كل شيء

(*) الكلام فيه يتجه الى حفز النفوس نحو العمل بالاحكام التي بينتها السورة فيما يختص باليتامى والأسر وتكوين البيوت ، وذلك عن طريق التوجيه الى الاحسان العام ، والى أن سعادة المؤمن ليست معقودة بالاحسان الى أسرته وأقاربه فقط ، وانما ترتبط بالاحسان الى كل ما يحتاج الى الاحسان .

ومن هنا أمر بالاحسان في عبادة الله وهي أصل الخير كله ، والاحسان فيها افراده بالعبادة والتقديس ، دون أن يكون لغيره شركة ما فيها هو من خصائص الألوهية ، ثم ذكر الاحسان الى الوالدين لانهما عماد الأسرة ، وفيها يشب المرء على الاحسان ، ثم يمتد الاحسان منها الى الأقارب والجيران والأصحاب ، والى كل أرباب الحاجات ، وبهذا ترتبط وحدات الأمة على أساس من الرحمة ، وتصبح تلك الوحدات أسرة واحدة ، متعاونة في السراء والضراء فيتحقق الرحم الانساني العام الذي افترحت بتقريره بين الناس ، ولفت النظر اليه ، سورتنا الكريمة .

ثم تشير الآيات الى ان التقصير في هذا الحق الاجتماعي شأن صنفين من الناس : صنف يختال ويتكبر ولا يرى لغيره حقا عليه ، فيبخل بنعمة الله على عباده ، وبذلك يشيع خلق البخل بين الناس ، فيبخلون كما يبخل ، ويتقطع ما بينهم من صلوات ، وتحدث بينهم الضغائن والأحقاد : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون

(*) الآيات من ٣٦ الى نهاية الآية ٥٧ من سورة النساء .

ما آتاهم الله من فضله » . وصنف يتعاضم على الناس فيحسن اليهم ، ولكن ابتغاء مدحهم اياه ، وتعظيمهم له ، دون ان يدفعه الى ذلك شعور بحق ، أو ايمان بالله : « والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يسجل القرآن على هذين الصنفين ، ان الذي اغراهم بالبخل والرياء على هذا الوجه ، الذي يدل على حرمان النفس من الفضيلة ، انما هو الشيطان ، منبع الشر والرذيلة : « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » ثم تثير الآيات عجب الناس من هؤلاء في اعراضهم عن الايمان بالله واليوم الآخر ايماناً يدفعهم الى القيام بالحقوق ، والاخلاص في أدائها على وجه يغرس الفضيلة في نفوسهم ، ويكفل لهم ثواب الله ورضاه ، مع انهم لو اخلصوا لما فاتهم شيء مما يحبون ، ولحصلوا في الآخرة على النعيم الدائم والجزاء الحسن : « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها » ، وكيف يكون حال هؤلاء يوم يجمع الله الناس ويشهد على كل امة رسولها ؟ . « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا » .

علاج لادواء النفوس

ثم تسوق الآيات للمؤمنين علاجاً من شأنه اذا قاموا على وجهه هذب نفوسهم ، وطهر قلوبهم ، فلا تعرف الى البخل ولا الى الرياء سبيلاً ، ذلكم العلاج هو « الصلاة الخاشعة » عصمة الانسان من الفحشاء والمنكر « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » . وارشدهم في ذلك الى تدبرها واستحضار عظمة الله فيها : « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ثم تلفت الأنظار الى تطهير الظاهر حتى تلتقى طهارته مع طهارة الباطن : « وان كنتم جنبا فاطهروا » . وتذكر بنعمة الله عليهم في الاكتفاء بالطهارة الرمزية ، وهي طهارة التيمم حين لا يقدرון على الطهارة الحقيقية ، وهي طهارة الماء . ثم تعرض الآيات بعد ذلك لحالة طائفة يعلم المؤمنون من أمرها ما يعلمون ، من الاعراض عما آتاه الله من احكام وهداية ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، واتخاذها لانفسها من عناوين التزكية كأبناء الله واحبائه ، وما يوهمون به أنهم في غنى عن العمل بنصييهم من كتاب الله وشرعه ، وفي اثناء ذلك تهددهم الآيات بقوله تعالى :

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

هذا ما يلفت الله نظر المؤمنين اليه في وجوب الأخذ بأحكامه ، وعبرتنا منه أن نرتفع بأنفسنا عن مواطن الذين ييخلون والذين يراءون ، ونعصم أنفسنا عن مسايرة هؤلاء في تحريف الكلم عن مواضعه ، واشتراء الضلالة ، وتركية النفس بمجرد النسبة الى الرسول أو الاسلام ، فعلى هؤلاء الذين ينتمون الى كتاب الله ، ويقولون نحن مسلمون لله ، أن يتدبروا هذا التهديد الالهي ، وأن يعلموا أن هذا التهديد سنة الله مع كل من أعرض عن ذكره ، ونبذ شرعه وأحكامه ، وحرف كلمه عن مواضعه ، ثم عليهم أن يستمعوا الى وعيد الله لمن حاد عن طريقه : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . ثم الى وعده لمن التزم حدوده وأحكامه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا » . .

الربع الخامس :

الامانة والعدل

(*) والكلام فيه لا يزال في التشريع الداخلى الذى يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها . وقد أرشدت الآيات هنا الى أن أساس الانتفاع بهذه الاحكام أمران لا تسلم أمة ولا تسعد الا بمراعاتهما والحرص عليهما ، وهما أساس الحكم الصالح ، وسبيل الحياة الطيبة : أداء الامانات الى أهلها ، والعدل فى الحكم بين الناس . والامانة اسم للحق الذى أودع عند الإنسان ، وكلف حفظه ليوصله الى صاحبه الذى يملكه ، أو الذى ينتفع به ، فيشمل المال ، وأداؤه تسليمه كاملا غير منقوص ، والعلم ، وأداؤه تعليمه على وجهه الصحيح ، والرأى ، وأداؤه إبداءه لمن يحتاج اليه ، أو لمن

(*) الآيات ٥٨ الى نهاية الآية ٧٣ من سورة النساء .

بيده التنفيذ ، وأداء الأمانات يتناول تيسير طرق الوصول اليها ، كنشر الكتب المهدية التي ينتفع الناس بها في دينهم ودنياهم ، وتنقيسة التعاليم الدينية من البدع والخرافات والأساطير التي تفسد على الناس دينهم وتصورهم . كما يتناول تنظيم الطرق الزراعية ، وحفر الترع ، وإنشاء المصانع ، كل ذلك مما يجب على الراعى تسهيله للرعية وهو أمانة في عنقه . .

أما العدل في الأحكام فيرجع الى تحرى الحق بوسائله ، والبعد عن الهوى والشهوة ، وقد أرشدت الآيات الى أن سبيل الأمانة والعدل إنما هو طاعة الله المشرع . والرسول المبين ، وأولى الأمر ، القائمين على حدود الله ، الذين هم من الأمة ، يحسون احساسها ، ويهتمون بخيرها وسعادتها « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ثم تلقت الآيات أنظار المؤمنين الى طائفة تنبت فيما بينهم ، تظهر ايمانها بشخصية الأمة ، وقلوبها تنكرها ، يزعمون أنهم يؤمنون بدين الأمة وقانونها ، وهم في الواقع ينطوون على ارادة التحاكم الى غير دينها الحق تبعاً لشيائطينهم ، وسيراً مع أهوائهم : « وإذا قيل لهم نعالوا الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً » .



وهذه نائنة السوء ، وجرثومة الشر ، يختبر الله بها كل أمة ، فأحذروهم واحذروا طريقتهم التي تفسد عليكم أمركم : « أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » .

ألا وإن هؤلاء لا يقام لهم وزن عند الله ، ولا تحفظ لهم كرامة إلا اذا تابوا وطهروا أنفسهم من رجس النفاق ، وتعاونوا معكم على البر والتقوى ، وخضعوا لأحكام الله ، واتخذوها حكماً فيما ينشأ بينهم من خلاف أو يعرض لهم من حاجة : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

ثم تلتفت الى أولئك المنحرفين وترشدتهم الى ما فيه خيرهم من

الامثال لما يلقي عليهم من احكام الايمان ، والانتفاع بثمراتها العلية :
 « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتا . واذا
 لاثنين من لدنا اجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما » . ثم نختم
 الآيات هذا التشريع الداخلى الذى تحدثت فيه من اول السورة ،
 تختمه بوعده كريم لمن يطيع الله والرسول فيه ، وتعددهم برفع مكانتهم
 الى مستوى الذين أنعم الله عليهم من عباده الأخيار « النبيين ،
 والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » .

الاستعداد للامن الخارجى بعد الداخلى

ثم تأخذ الآيات فى الارشاد الى ما يتوقف عليه استقرار الأمة
 من جهة خارجيتها ، فتأمر بأخذ العدة والاستعداد الدائم لمكافحة
 العدو الطارىء عليها ، المقتصب لها ، وتأمر بتطهير الأمة من
 عناصر الفساد والتخذيلى التى تنبت منها وفيها ، وتربط حبالها بحبال
 أعدائها ، وتعمل فى سرها على تمكين العدو من بلادها .

ثم تعرض الآيات فى سبيل طويل للتعامل فى سبيل الله وفى سبيل
 المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وترشد الى ما ينوقف
 عليه النصر ، معلية فى ذلك كله شأن الذين يقاتلون فى سبيل الله ،
 الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويضحون بأنفسهم وأموالهم فى
 اعلاء كلمة الحق ، ورد كيد الغاصبين المبطلين : « يا أيها الذين
 آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات او انفروا جميعا وان منكم لمن
 ليبطئن فان اصابكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم اكن معهم
 شهيدا ، ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه
 مودة ، يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

سورة الأنعام

الربع السادس :

تعامى المعاندين عن الحجج

(*) قال تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » .

هذا هو الربع السادس من سورة الأنعام ، وسورة الأنعام ، هي سورة الحجج العقلية بين الحق والباطل ، وقد سلكت في حجاجها طريق الحكاية والتلقين ، تحكى بكلمة « قالوا » أو نحوها شبهة المبطلين ، وتلقن بكلمة « قل » ونحوها الحق وحجته . ومن شأن المبطلين في كل زمان ومكان ، أن يتعاموا عن حجة الحق الواضحة ، ويلتمسوا — تبريرا لعنادهم وامراضهم — حجة ليؤمنوا بها ، ويقسموا أنهم أن جاءتهم حجة ظاهرة ليؤمنن بها . والواقع أن كفر المعاندين لم يكن ناشئا عن عدم الحجة ، وإنما هم بذلك لاتنفعهم حجة ، ولا يؤمنون ببرهان ، وأنه مهما سيق إليهم من حجج ، وهىء لهم من دلائل فانهم لا يؤمنون لا إذا سلخوا سنة الله في إيمان من يؤمن فطهروا قلوبهم من الحقد والحسد ، وأقبلوا على النظر البريء فيما يدعون إليه « ولكن أكثرهم يجهلون » يتمكن الجهل والسفه من قلوبهم فيمنعهم أن يسلكوا طريق الهداية والإيمان .

وان واجب أهل الحق بالنسبة إليهم أن يعرفوا أن عداوتهم للحق ناشئة من نفوسهم وليست ناشئة من عدم الحجج المقنعة ، فلا يهتموا بشأنهم ، ولا يكثرثوا بما يقترحون من حجج وآيات : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » .

(*) الآيات من ١١١ الى نهاية الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .

واجب الدعاة

وليعلم أهل الحق ان سنة الله جرت مع كل نبي وكل داع ، ان يثبت لهم اعداء يقفون امام دعوتهم ويعملون جهدهم في صرف الناس عنها وما على هؤلاء الدعاة الا ان يصبروا ويصابروا ، ويعصموا انفسهم واتباعهم من الاغترار بزخرف قولهم وفساد وحيهم حتى يأتيهم نصر الله ، وتكون العاقبة للصابرين » وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن » ، ولقد كان في قدرة الله ان يسلبهم قوة المعارضة ، ولكن لم يشأ ذلك تحقيقا لحكمة الابتلاء ، وتصحيحا لقانون المحاسبة والجزاء « ولو شاء ربك ما فعلوه » . .

وافن فيجب على دعاة الحق ان يتركوهم وأن يعتصموا بالحق الذي معهم وتشهد بصحته فطرهم وضمايرهم ، كما يشهد بصحته التاريخ الحق لآخوانهم السابقين : « افغير الله ابتغى حكما وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » .

فليعتصموا بحقهم ، وليثقوا بسنة الله معهم في النصر والتأييد ، وبسنته مع اعدائهم في الهزيمة والخذلان « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » وليحذروا الاستماع اليهم ، والتأثر بما ينفثون من سموم : « وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » ، « وأن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم ، وان اطعتموهم — في عقيدة أو عمل — انكم لمشركون » .

اعداء الحق

وقد جرت سنة الله ايضا ان يجعل اعداء الحق في كل امة « اكابر مجرميها » ارباب الرئاسة والجاه والسلطان ، وانهم هم الذين يضطربون لصوت الحق ، ويخافون سطوته ، وهم لذلك يعملون جهدهم في وضع العقبات ، وفي الكيد لأرباب الحق ، ولكنهم في سنة الله لا يمكرون الا بأنفسهم وسيرون حتما ذلتهم وعزة الضعفاء حينما تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم القضاء على أيدي هؤلاء الضعفاء : « وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون » .

بهذا مضت سنة الله في الاولين ، وتمضي به في الآخرين ، وبه

يسجل الله الصغار والذل على المبطلين ؛ الذين يكدون للحق ويحرفون الناس عن الحق « سيعيب الذين أجزموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » ، أما من يطهر قلبه من دواعي الإجرام ونوازع النفس الخبيثة ؛ ويستقبل الحق بقلب نقي فإنه يدخل في رحمة الله ؛ وينعم بفضله وهدايته .

« وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » .

الربع السابع :

مهتد وضال

(*) يواصل هذا الربع الحديث عما يكون من شأن المهتدين الذين ظهرت قلوبهم من الموروثات الفاسدة ، ونظروا في أدلة الحق . فأنشروا به صدورهم وسلكوا طريق الله المستقيم . ومن شأن الضالين ، الذين تحجرت قلوبهم فلم ينفذ اليها شعاع الحق ، وظلوا في كفرهم يعمهون ، فيذكر بالنسبة للمهتدين . « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

ويصور بالنسبة للضالين بعض مواقف الحشر والحساب ، التي يتجلى فيها أن سبب ضلالتهم هو فتنة بعضهم ببعض ، واستجابة الاتباع لأغراء المتبوعين ؛ ويتجلى فيها تحسر الاتباع على السير وراء المتبوعين ، والتي تقطع عليهم فيها أعذارهم ، ويذكرون برسول الله وآياته ، فيشبهون على أنفسهم بالكفر ، ويعترفون أن الحياة الدنيا هي التي غرتهم ، وحرفتهم عن الإيمان بالرب ، وعن النظر في الآيات : « يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضهم ببعض ، « يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا شهدنا على أنفسنا » .

شبه الشيء منجذب إليه

وعندئذ يصدر على الجميع ، ضالين ومضلين : « النار

(*) الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام .

مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله . وفيما بين هذا التصوير الآخذ بالنفوس والذي يعبر تعبيرا قويا عن علاقة الاتباع بالمتبوعين في الدنيا والذي يوضح أن ضلال الفريقين إنما جاءهم من قبل أنفسهم ، سيرا وراء الهوى والشهوة ، لا من قبل الله بحكم قاهر لا مفر منه .

فيما بين هذا التصوير ، تقرر الآيات سنتين من سنن الله في خلقه ، تختص احدهما بالضلال والاضلال ، وهي أن النفوس المتشابهة في عوامل الأعراض عن الحق يميل بعضها بحكم المشاكلة الى بعض ، تلتقى رغباتهم وأهواؤهم ، فتلتقى عقائدهم وخططهم ، فيتعاونون ، ويتناصرون ، ويتبع بعضهم بعضا « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » .

الجزء بعد الإنذار .

وتختص السنة الأخرى بشأن الله في الحساب والجزاء ، وهي أنه ليس من شأنه سبحانه أن يعذب الأمم بما يشيع فيها من مظالم ، وينتهك فيها من حق ، قبل أن ينذرهم ويرشدهم ، ويبعث فيهم من يدعوهم الى صراطه المستقيم ، لئلا تكون لهم حجة ، ويقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

سر التكليف والاختيار

ثم تبين الآيات أن هذه السنن التي يعامل الله بها عباده — في الضلال والهدى ، والإنذار والتبشير ، والحساب والجزاء — لم تكن ليسد بها حاجة له سبحانه ، فهو الرب الغنى الذي يحتاج اليه كل من سواه ، وإنما هي من رحمته بعباده ليظهر فيهم المحسن من المسيء ، ويمتاز بها الخبيث من الطيب ، ويحظى كل عامل بنتيجة عمله ، ولو شاء سبحانه لأذهب العصاة المارقين ، وأتى بقوم يحبهم ويحبونه ، يطيعون ولا يعصون ، ولكن قضت حكمته بتنظيم الكون على هذه السنن ، تحقيقا لقاعدة التكليف والاختيار ، وإظهارا لفضل العقل الذي فضل به الإنسان على غيره من سائر المخلوقات . .

إذا فسدت العقيدة ساء السلوك

ولما كانت العقائد الفاسدة يتبعها دائما احكام فاسدة وتصرفات منحرفة ، أخذت الآيات تبكت الضالين في عقائدهم ، على بعض تصرفاتهم التي كانت أثرا من آثار كفرهم بالله ، وأعراضهم عن شرائعه وأحكامه ، فذكرت تصرفهم بالتحليل والتحريم في الحرث والأنعام ، تصرفا لم يأذن به الله ، ولم يكن في طبائع الأشياء ما يسمح به أو يبرره : جعلوا منها نصيبا لشركائهم ، ونصيبا لله ، وبعد هذا يأخذون مما جعلوه لله ويضيفونه لما جعلوه للشركاء ، وخصصوا بعض الأنعام والحرث لمن يشاءون ، وحرموها على من يشاءون . . حرموا ظهور بعض الأنعام ومنعوا أن تركب أو يحمل عليها وأكلوا ما ذبحوه باسم الأصنام والشركاء ، وحرّموا ما ذكر اسم الله عليه ، وهكذا حتى امتد سوء تصرفهم الى أولادهم فتقربوا بقتلهم الى المعبودات .

وعبرتنا في ذلك : أن التشريعات والتصرفات التي لا تؤسس على الإيمان بالله وشرائعه لأبد أن تكون عاقبة أهلها الخسران والدمار ، فليعتبر هؤلاء الذين يجعلون لغير الله نصيبا فيما خلق والذين يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل ابتغاء شهوة أو تقليد ، والذين يعملون جهدهم في افساد نطف النسل الذي به يعمر الكون ، وتظهر به أسرار الله في خلقه ، وليقرعوا جميعا قوله تعالى :

« قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » .

الربع الثامن

نعم الله دلائل وحدانيته

(*) وفي هذا الربع تعود الآيات فتذكر أدلة التوحيد الماثلة في نعم الله التي يتقلب فيها عباده ، والتي يسدون بها حاجاتهم ، ويمتنعون

(*) الآيات من ١٤١ الى نهاية الآية ١٥٠ من سورة الأنعام .

بلذائذها أنفسهم .. يذكر من ذلك الزروع ويذكر الأنعام ، ويلفتهم الى ما في الزروع والأشجار من ثروة نباتية ينتفعون بأخشابها في مهامهم ، وبثمارها في طعامهم ، والى ما في الأنعام من ثروة حيوانية، لهم فيها دفاء ومنافع ومنها يأكلون : « وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » . « ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » . كلوا من الأنعام ، كما تأكلون من الزروع والثمار فالكل مما أنعم الله به عليكم ، وأحله لكم ، وان التفريق بين ما أحل الله بتحليل البعض وتحريم البعض ، خروج عن قضية التسوية بين المتماثلات في الطبيعة والحكم ، وافتراء على الله بالتحليل والتحريم ولا يملك التحليل والتحريم سواء « قل الذكركن حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا »

اربعة اطعمة محرمة

لم يحرم شيئا من هذا ، وما كنتم شهداء إذ حرم . وانما هو افتراء وتضليل « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم » . ان الله لم يحرم شيئا من الزروع ، ولا من الأنعام ، وانما الذى حرم ان يطعم هو الميتة ، والدم المسفوح ، ولحم الخنزير ، والفسق الذى اهل به لغير الله . وقد حصر الله ما حرم من طعام في هذه الأصناف الأربعة ، وقد جاء ذلك الحصر في سورتنا بقوله : « قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به » وجاء ذلك الحصر مرة أخرى في سورة النحل بصيغة : « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » . وسورة الأنعام، وسورة النحل مكتبتان ، ثم جاء ذلك الحصر مرة ثالثة في سورة البقرة على نحو ما جاء في سورة النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » ثم جاء مرة رابعة في سورة المائدة : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » وكان ذلك بعد قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم » . وسورة البقرة ، وسورة المائدة مدنيتان . والمائدة بعد ذلك من اواخر القرآن نزولا . ومن هنا يتبين ان حصر المحرمات من الطعام في هذه الأربعة ، هو ظاهر القرآن الكريم .

شبهتان مردودتان

وتعرض الآيات بعد هذا الى شبهتين . كان يتذرع بهما القوم في اصل التحريم . وفي عدد المحرمات ، فكانوا يقولون : لو كان دين الله حصر التحريم في هذا الأربعة فكيف حرم على بنى اسرائيل كل حيوان ذى ظفر ؟ وحرم عليهم بعض شحوم البقر والغنم ؟ . . . ويجيب الله عن هذه الشبهة بأن تحريم ذلك على بنى اسرائيل لم يكن شرعا وانما كان ابتلاء وعقوبة « كل لطعام كان حلالا لبنى اسرائيل » « ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » . وكانوا يقولون في اصل التحريم والشرك ، وما ورثوا عن الآباء من عقائد وشرائع فاسدة : « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمتنا من شيء » يريدون ان الله رخصه وأمر به ، أو انهم كانوا مجبورين عليه بقهره الذى لا يستطيعون التخلص منه ، وتلك شبهة لا تزال عالقة بالنفوس يعتذر بها المفسدون ، ويجادل بها المبطلون ، والله يجيب عنها بأن أمثالهم السابقين كذبوا الرسل فأشركوا وحرموا ، واعتذروا بالمشيئة كما يعتذرون ، فعاقبهم الله على شركهم ، ولم يكثر باعذارهم ، فلو كان حقا ما قالوا لما عاقبهم « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » ثم طالبهم بما يثبت رضا الله بالشرك والتحريم أو بما يثبت قهرهم على ما هم عليه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » . . . واذ لا علم عندكم فلا تتبعوا أهواءكم واتبعوا ما أنزل الله اليكم : « قل فله الحجة البالغة » . . .

الانسان مختار غير مقهور

كلفكم واعد واوعد ، وترككم كما خلقكم ، مختارين غير مقهورين ولا مجبورين ، ليكون للمحسن احسانه ، وللمسيء اساءته ، ولو شاء لقهركم على الطاعة فلا تقدرון على العصيان ، أو قهركم على العصيان فلا تقدرון على الطاعة ، وعندئذ لا تكونون من النوع الذى أعد له للخير والشر ، وهذاه النجدين . ثم يستنهض همته في استحضار من يشهد لهم بما يقولون ، ويحذر النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه من السير في طريق شبههم الضالة :

« ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » .

الربع التاسع :

(*) عرضت سورة الأنعام لكثير من أدلة التوحيد والرسالة والبعث ، ودفعت كثيرا من الشبه التي كان يثيرها خصوم الدعوة عليها وعلى الدعوة ، وبينت في سبيل تسلية الرسول وصحبه جملة من سنن الله في الاضلال والهداية ، وفي معارضة الباطل للحق حتى أوفت في ذلك كله على الغاية ، وأخيرا ختمت بهذا الربع : « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا ، وبوالدين احسانا » . . . الآيات . فركزت الدعوة في أمهات الفضائل ، وأسس الخير للفرد والجماعة ، ففي جانب العقائد :

« الا تشركوا به شيئا » ، فله وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، ومنه وحده الخوف والرجاء ، وله وحده التحليل والتجريم .
وفي جانب العمل :

« وبوالدين احسانا » . فمنهما نشأ الانسان وفي أحضانها تربي ، والاحسان اليهما اعتراف بالنعمة وتقدير للجميل : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » . فالولد ثمرة الحياة ، وحلقة في سلسلة النوع الانساني ، وفي حكم قتلهم العمل على منعهم حيث لا ضرورة تدعو اليه ، واهمال تربيتهم ، أو تنشئتهم على بغض بلادهم ودينهم . .

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » . فالاعتداء عليها هدم لعبارة بناها الله ، واعتداء على خلافة أرادها الله . نعم . أهترت عصمة النفس البشرية اذا اعتدت على أخت لها بريئة فقتلتها ، أو على نظام الله العام محاربتة ، أو على جماعة المسلمين فناصبتها العداة .

« ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده » ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » . فالأموال صنو النفس ، وعنصر

(*) الآيات من ١٥١ الى آخر سورة الأنعام .

الحياة . والاعتداء عليها اعتداء على الحياة ، وقد خص بالذكر « الأكل » عن طريق استضعاف المالك كاليتيم ، وعن طريق الاختلاس في المعاملات التي لابد للناس منها ، وهو طريق البيع والشراء : « ويل للمطففين .. » .

وفي جانب القول :

« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا » . العدل ، والوفاء بالعهد قطبا النظام ، فلا عمران مع الظلم ، ولا نظام مع المحسوبية ، ولا ثقة مع نقض العهود . واهمال شرع الله نقض لعهد الايمان ، والاخلال بالالتزامات نقض لعهد الانسان . وتبديل حكم الله نقض لعهد الله ولا حياة لامة عرفت بنقض العهود .. « وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » جمع الكلمة وارتباط القلوب حول تركيز شرع الله اعتصام بحبل الله ، وسبيل للخير والفلاح . والتفرق غول الأمم ، ومورد التهلكة .

وصايا الهيبة

تلك وصايا الله ، بعث بها كل رسول ، وأنزل بها كل كتاب .. فهي شرعه الدائم ، وصراطه المستقيم ، جاء بها كتاب موسى ، وجاء بها القرآن الكريم ، ليؤكد اللاحق السابق : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن » ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون » . والاعراض عنه تكذيب بآيات الله وسبيل لغضب الله ، والتفرق فيه تضييع لأمانة الله : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ، انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون » .

ثم تختم السورة بأمرين عظيمين ، يرجع احدهما الى تقرير الدعوة في نفسه صلى الله عليه وسلم تقريراً يحس به وجدانه ، ويتجلى به ظاهره ، ويمتلئ قلبه ببرهانه المادي والتاريخي : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ، ديناً قتيماً ملة ابراهيم » « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » ، « قل غير الله ابغى ربا وهو رب كل شيء » .

وتقرير الدعوة على هذا الوجه له من الأثر في قوة الداعي ،
وفي تبديد شبه المعارضين ما يركز للحق سلطانه ، ويرمى بجبهة
المعارضة الى مكان سحيق ..

أما الخاتمة الثانية والأخيرة فهي ارشاد الانسان الى مكانته
التي أعدها الله له في هذه الحياة ، تلك المكانة التي تمثلها خلافته
في الأرض ، وان الله جعل عمارة الكون تحت يده وبعمله ، تتعاقب
عليه أجياله ، ويقوم اللاحق في ذلك مقام السابق ، وان الله سبحانه
قد غاوت في المواهب ليظهر من يحسن في الخلافة فيكون له من
الله مغفرة ورحمة ، ومن يسيء فيكون له من الله شديد العقاب :
« وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » .

سورة الأعراف

الربع الأول :

مهمة التنزيل المكي

(*) سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم ، وأول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، وهي أطول سورة في المكي ومهمتها هي مهمة المكي : تقرير التوحيد . . ربوبية ، والوهمية ، وتشريعاً ، وتقدير البعث والجزاء ، وتقدير الوحي والرسالة . وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسائل الإلهية . .

واجب الداعي وحقه

نوهت بشأن الكتاب ، وأرشدت الى الغاية التي لأجلها أنزل ، وإلى ما يجب على الرسول بصفته الداعي أن يطرده عن قلبه حتى يقوى في الدعوة ويقوم بالمهمة التي أقيمت على كاهله : « كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، فعلى دعاة الخير أن يتسلحوا بالهدوء والاطمئنان . وعلى الناس أن يوفروا عليهم راحة الضمير ، ألا يضعوا أمامهم العقبات التي تخرج الصدور ، وتقبض النفوس ، وقد أجملت السورة دعوتها الى هذه الأصول في آية واحدة ، تحمل الأمر بناحية الإيجاب ، وتحمل النهي من ناحية السلب ، فطلبت اتباع ما أنزل من عقائد وأخلاق وأعمال ، ونهت عن اتخاذ أولياء من دون الله ، يرجع اليهم في التحليل والتحريم ، أو يقصدون بالعبادة والتقديس ، أو يعتمد عليهم في الشفاعة والمغفرة : « اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء » .

ثم سلكت سبيل الإنذار : فأنذرت بما أصاب الأمم السابقة حينما كذبت رسلها ، وعنت عن أمر ربها : « وكم من قرية أهلكناها

(*) انظر أول الأعراف الى نهاية الآية ٣٠ .

فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون « . وخوفت بما أعد للمكذبين يوم ان يسألوا عما أنزل اليهم ، ويوم أن يسأل عنهم المرسلون ، يوم الوزن الحق ، يوم يثقل الميزان أو يخف : « فلنسالن الذين أرسل اليهم ولنسالن المرسلين » ، « والوزن يومئذ الحق » ثم سلكت سبيل التذكير بالنعمة ، فلفتت الأنظار الى نعمة تمكين الناس في الأرض ، واتخاذهم اياها وطنا مزودا بضروب المنافع الشتى : يستقلون فيه بالحكم ، والانتفاع بموارده الظاهرة الباطنة لا يشاركهم فيه أحد ، ولا يخرجهم منها انسان « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش » .

ولفتت الأنظار الى نعمة خلقهم من أب واحد ، يجمعهم به رحم واحد ، وبه كانوا خلفاء في الأرض وعمارة الكون ، وفضلهم بذلك على كثير من خلقه . وهنا ذكرت السورة خلق آدم وقصته مع الملائكة ، من أمرهم بالسجود له ، اظهارا لفضله ، وتنويها بما يكون له من شأن ، بعد أن قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » .

تحذير من ابليس وجنده

ثم ذكرت موقف ابليس من آدم وكيف ابى واستكبر ، وتعالى وتعاضم وقال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » . ومن هنا ظهر للانسان عدوه المبين ، الذى ابتلاه الله به في هذه الحياة ، والذى يجب عليه — ليسلم من شره ويسعد ، ويحصل على رضا مولاه ، ويحقق حكمة الله في خلقه — أن يتخذ عدوا ، ينحسس نواياه ، ويعترف وسوسته ويكافحه بكل ما أوتى من قوة ، يعرف انه قد نصب له الشباك وقعد له بالمرصاد ، ورسم خطئه في اغوائه والكيد له : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » . .

بصرنا الله بهذه العداوة ، وحذرنا منها « اخرج منها مذموما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين » . ثم يذكرنا بما كان من أثر عداوته لآدم أبى البشر : كان آدم وزوجه في رغد من العيش فابتلاههما الله بتكليف خاص ، فوسوس لهما الشيطان ليظهر ضعفهما ، فينحرفا عن التكليف ، فيقعن في شر المخالفة ،

فيكون لهما من الله جزاء المخالفين « فوسوس لهما الشيطان » .
« وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور » ، ووقعا في
المخالفة ، ثم تنبها الى كيد الشيطان ، وقالوا : « ربنا ظلمنا انفسنا
وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وهكذا يجب ان يربط اولاد آدم نسبهم بآدم ، فيعرفوا — كما
عرف — كيد الشيطان ، ويطهروا انفسهم — كما طهر — من
وسوسته واغوائه ، فقد خلقهم الله في الأرض ، وابتلاهم
بالشهوات ، وتعارض الرغبات ، وقام الشيطان بينهم ، يضل ،
ويكيد ، ويفرق ، ويفرى ، ونظم حياته على قوى الافساد ،
فليحذروه ، وليتقوا شره ، وليعتصموا بدعوة الله الواقية ، لعلهم
يرحمون « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع
الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ، ومنها تخرجون » ..

وتخلص الآيات بعد ذلك الى نداءات أربعة تتجه بها الى الناس
بوصف النبوة لآدم تذكرهم بنعم الله عليهم ، وتحذرهم فتنة
الشيطان ، وترسم لهم طريق الخير والفلاح في الدنيا والآخرة .

الربع الثاني :

الانسان بين الخير والشر

(*) قص الله علينا نبأ آدم مع ابليس ، وكان مغزاه ان الانسان
له جانب خير يتلقى به امر ربه ويمثله وينفذه ، فيصل الى سعادته
والى رضاه ، وله جانب شر ، به يستجيب لوسوسة الشيطان
واغوائه ، فيبعد بذلك عن سعادته ، ويصيبه غضب الله . وأولاد
آدم من آدم ، تكوينهم من تكوينه واستعدادهم من استعدادهم فلهم
كأبيهم جانب خير يقودهم الى اتباع أوامر الله ، وجانب شر يوقعهم
في المخالفة والعصيان ، وابليس الذي نشأ على عداوتهم يغريهم
ويوسوس لهم كما أغرى أباهم ووسوس له ، ويحاول أن يكشف
لهم من عورات وسوءات ، كما كشف لأبيهم من عورات وسوءات .

(*) الآيات من ١٢٧ الى نهاية الآية ١٤٠ من سورة الانعام .

لهذا وجه الله الى أبناء آدم ، بعد أن بين لهم عنداوة ابليس
لابيهم ، أربعة نداءات متتالية بوصف البتوة لآدم « يا بني آدم
يرشدكم فيها الى نعمته عليهم ويحذرهم بها من عبوهم ، ويرشد
الى أن هدايته لهم والتمسك بها هي وحدها سبيل عصمتهم ،
الوقوع في كيدته ، ويذكرهم بأن الحرمان من النعيم ، الذي أصاب
والديهم ، إنما كان بنسيانها نعمة الله ، وباستجابتهما للشيطان
واغفالهما هداية الله .

امتن عليهم بأن هيا لهم سبيل الحصول على الملبس الذي
يسترون عورتهم ويريشون به أنفسهم في مناسبات التجميل ، ولما
أنظارهم الى أن تقوى الله في الانتفاع بنعمة اللباس على الذ
رسم الله هو أساس الرضا ، وأساس الشكر « يا بني آدم ،
أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك
خير » .

وفي تحذيرهم من فتنة الشيطان التي فتن بها والديهم من قبل
ووقعا بها في المخالفة والعصيان : « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان
كما أخرج أبويكم من الجنة » . وفي سبيل هذا يرشدكم الى أن عد
الايمان بالله والأعراض عن هديه هو الطريق الوحيد الذي به يتسك
الشيطان عليهم ، وينفذ منه الى قلوبهم : « أنا جعلنا الشياطين
أولياء للذين لا يؤمنون » ، فيأخذون بهم الى طريق الشر ، ويخيلون
لهم أن ما يفعلون من شر وفاحشة إنما هو باذن الله وأمره « وإذا
فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » . ثم يجي
النداء الثالث ، فيكشف عن المعنى الانساني في اللباس ، وأنه مو
الزينة التي تحفظ على الانسان مكانته ، ويأمرهم باتخاذها في المساجد
وما يماثلها من المجتمعات ، ويرشدكم الى الاعتدال فيها ويضم اليه
الأكل والشرب ، ويقول : « ولا تسرفوا أنه لا يحب المسرفين » .

وكما يحذر الاسراف ، يحذر الحرمان ، وينكر على الاشحاء أو
المتطعين حرمان أنفسهم من الزينة والطيبات من الرزق ، ويرشدكم
الى أن الجدير بالتحريم وبتطهير النفس منه « الفواحش » التي
قأبها الانسانية ، و « البغى » في الأرض ، و « الشرك » الذي
لا تقوم له حجة ، ولا يوحى بفضيلة ، والقول على الله بغير علم ،
وهو أصل الضلال ، والقضاء على شرائع الله واحكامه . وترشدكم

الى ان لكل أمة أجلا ، تحاسب بعده على ما اقترفت من المظالم والمآثم ، وينزل بها الجزاء الذى تستحق ، وانها لا تحظى بالنعيم بعد هذا الأجل الا اذا آمنت بالله وهداه ، واتقت حرماته ، وأصلحت ما أفسدت أو أفسد الناس : « يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصرون عليكم آياتى ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

حرمان ابدى

ثم تصور لنا الآيات بعد مشهدا من المشاهد الواقعية يوم الجزاء للمكذابين حتى يتضح الحق ، ويشهدون على أنفسهم بالكفر والتكذيب ، وان أربابهم — الذين كانوا يدعون من دون الله ، وشفعاءهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى النجاة من عذاب الله — قد ضلوا عنهم وتبرءوا منهم ، وفى هذا المشهد يتخاصم التابعون والمتبوعون ، ويلقى كل منهم بالتبعة على صاحبه ، ويسجل الله على الجميع تابعين ومتبوعين ضالين ومضلين الحرمان الأبدى ، ويوصد فى وجوههم أبواب الرحمة ، ويصف قلوبهم فى طبقات الجحيم المستعرة : « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى اذا أداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » .

« لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط » .

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين » .

نعيم دائم

وبجانب مشهد الظالمين المكذابين ، ترسم الآيات مشهد المصدقين المؤمنين صفاء للنفوس من الغل والحق ، وحمدا على هداية الله ، وشكرا على نعمته : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار » ، « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » ، « لقد جاءت رسل ربنا بالحق ، ونودوا ان تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » . .

الربع الثالث :

محادثة بين فرق ثلاث

(*) يتحدث هذا الربع عن مشهد آخر ، تبدو فيه ألوان جديدة من صور التحية والتكريم للمؤمنين ، ومن صور التبكيت والحسرة للمكذبين ، وتجرى في هذا المشهد محادثة بين فرق ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، أهل الهدى والايان . وفرقة الكافرين ، أصحاب النار ، أهل الضلال والبهتان . وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن الا في هذه السورة ، وفي هذا الربع وباسمها سميت السورة ، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » . « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » . « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم » . « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة » .

مشهد آخرى ، سيشهده العالم يوم البعث والجزاء دون تصوير ولا تخيل ، تبين تلك الآيات ما سيكون فيه من شماتة أهل الحق ، أصحاب الجنة ، بالمبطلين أصحاب النار « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فلا يستطيعون الا أن يقولوا : « نعم » فينطلق صوت علوى ، يسجل عليهم اللعنة والطرده والحرمان ، ومشييرا الى أن ظلمهم للحق ولأنفسهم هو الذى حملهم على الصد من سبيل الله وعلى السلوك المنحرف ، وعلى الكفر بما يرون الآن . وتبين أن بين الجنة والنار حجابا ، وأن على الأعراف رجالا ، يعرفون كلا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، فينادون أهل الجنة بجميل التحية والتكريم : « أن سلام عليكم » وينادون الآخرين بما يضاعف حسرتهم ، ويبين لهم ما كانوا فيه من غرور : « ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » ؟ . ثم يلتفتون الى أهل الايمان ويقولون : « أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » . ويستقر أهل الكفر والضلال في الجحيم ، وتشوى النار وجوههم ، وتجفف أكبادهم ، فيفزعون الى نداء أهل الجنة : « أن أفيضوا

(*) الآيات من ٤٧ الى نهاية الآية ٦٤ من سورة الأعراف .

علينا من الماء أو مما رزقكم الله » فيقولون لهم : « ان الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرثهم الحياة الدنيا » . وهنا يقطع الله أعذارهم بأنهم كانوا في حل يوم أن جئناهم بكتاب فضللناه على علم ، فماذا يقولون اليوم وقد تركوه من قبل ؟ .. « قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تلك شماتة المؤمنين بالكافرين ، وتحسر الكافرين على حرمانهم وسوء مصيرهم وبشرى أصحاب الأعراف وتحيتهم للمؤمنين ، وتبكيهم للمنكرين الضالين ..

الحجاب والأعراف

وقد تكلم العلماء كثيرا في الحجاب الذى بين الجنة والنار ، كما تكلموا في معنى الأعراف وفي رجاله . والذى يجب علينا أن نؤمن به أن هناك حجابا بين الجنة والنار ، وقد يكون ماديا ، وقد يكون معنويا ، والذى يعلم حقيقته هو الله وحده . والقصد أن هناك ما يمنع وصول أهل الجنة إلى النار ، أو وصول حرارة النار إليهم ، ويمنع وصول أهل النار إلى الجنة ، أو وصول نعيمها إليهم . وأن هذا الحجاب لا يمنع من وصول الأصوات عن طريق المناداة .. ولعل ما نشاهده ، وما نحن فيه الآن من سماع الأصوات دون رؤية ومشاهدة ، أو الرؤية دون اتصال أو قرب ، أوضح شاهد على أن ما تصوره الآيات حقيقة تقع وتأخذ حظها من الوجود ، وليست تخيلا ولا تمثيلا .

أما الأعراف ، فأظهر ما نراه في معناها ، الأماكن العالية الممتازة . يكون عليها رجال لهم من المنزلة الرفيعة عند الله ما جعلوا به مشرفين على هؤلاء وهؤلاء ، وهم عدول الأمم ، والشهداء على الناس ، وقد جاء التصريح بهم في مثل قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

عظـات

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض الأدلة الكونية وتوجه النفوس الى دعوة الله تضرعا وخيفة ، وتحذر الانفساد في الأرض ، وتذكر مثلا للنفوس الطيبة التي تفعل بهذه الأدلة فتؤمن وتصديق وترد الأمر كله الى مصدره ، خالق السموات والأرض ، والذي له الخلق والأمر . ومثلا آخر — يقابله — للقلوب الملتوية التي تصرفها الشهوة عن الحق ، ويتحكم فيها الكبر ، فيمنعها من قبوله : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا » . ثم تعود الآيات فتذكر تفصيلا لما أجملته السورة في أولها من أحوال الأمم المكذبة ، فتذكر جملة من الأمم التي كذبت رسلها وعنت عن أمر ربها ، وتبدأ بالرسول الأول الأب الثاني للبشر « نوح عليه السلام » ، فتبين أن دعوته كانت هي دعوة محمد عليه الصلاة والسلام : « أعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ، وان الذين ناصبوه العداء وأخذ يسألهم ويناصحهم ، هم المستكبرون من قومه . كما كان شأن المكذبين لمحمد عليه السلام . وأن نوحا لما صبر وصابر واستمر قومه على العناد والمكابرة كانت العاقبة للجميع : « فأنجيناه والذين معه في الفلك » ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » . وهكذا سنتنا مع الآخرين المكذبين .

سورة يونس

الربع الثالث :

(*) عنيت سورة يونس بما عنيت به السور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة والبعث ، ودفعت جملة من الشبه التي كان القوم يثيرونها حول رسالة الرسول ، وحول القرآن . ووصفت في كل ذلك ما شاءت أن تصف ، وفي هذا السياق ضربت للقوم مثل الحياة الدنيا التي خدعتهم زخارفها ، وحالت بينهم وبين استجابة الدعوة ، وهي دعوة الله التي يدعو بها إلى دار السلام ، والأمن من الشقاء والحيرة والارتباك ، ثم تصف حالة المحسنين الذين استمعوا للدعوة وما يحصلون عليه من الكرامة الخالدة ، والمكانة الرفيعة التي لا يلحقهم فيها نكد ولا ذلة : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » وتصف بازائها حالة المسيئين الذين كسبوا السيئات ، وما يصيبهم في دار الخزي من المذلة والمهانة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم تصف مشهدا من المواقف التي يصير إليها المكذبون يوم الحشر الذي ينكرونه ويستهزئون بذكره ، ذكركم المشهد الذي يفرق فيه بينهم وبين شركائهم فتذهب آمالهم فيهم ، وتتقطع ما بينهم من صلات ، ويتبرأ منهم الشركاء : « ما كنتم إيانا تعبدون » ، « أن كنا عن عبادتكم لغافلين » ، وفي هذا الموقف ينكشف الغطاء ، وتزول الأهواء ، وترى كل نفس ما قدمت من عمل ، ليس لها شفيع من دونه : « وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

تحكيم الفطرة

ثم تنتقل الآيات إلى تحكيم الفطرة البشرية فيما تشهد به من توحيد الربوبية في الخلق والتدبير والرزق ، والأحياء والأمانة ، وتسجل عليهم الجواب المتين الذي لا تعرف الفطرة سواه ، توحيد الألوهية القاضي بعبادة الله وحده « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال » .

(*) الآيات من ٢٥ إلى آخر الآية ٥٢ من سورة يونس »

ثم تنتقل بهم الى تحكيم الفطرة أيضا فيما وراء الخلق المادى من أنواع الهداية المودعة في نفوس البشرية وهى هداية العقل ، وهداية الوجدان : « هل من شركائكم من يهـدى الى الحق ، قل الله يهـدى للـحق ، أمن يهـدى الى الحق أحق أن يتبع ، أمن لا يهـدى الا أن يهـدى » .

حول القرآن

ثم تنتقل الآيات بعد الحجاج العقلى والوجدانى الى موقف القوم بالنسبة للقرآن ، وقد كانوا ينكرون أنه من عند الله ، فبينت لهم أولا أن القرآن بطبيعة ما اشتمل عليه ، من تقرير الحقائق ، وإقامة الأدلة الكونية وشرح النفسانيات الانسانية، والسنن الاجتماعية، والمغيبات الماضية والمستقبلية ، والأحكام التى ترشد الى السعادة ، يأبى بكل ذلك أن يكون من عند محمد ، أو غيره ممن لا سبيل الى معرفتهم بما احتوى عليه القرآن ، فهو حق من عند الله لا ريب فيه ، وهو تصديق لما بين يديه من كتب الأولين : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » .

ثم أخذت بهم الآيات ثانيا ، على افتراض انه افتراء من عند محمد ، الى التحدى ، ودعتهم الى الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله ، فهم ومحمد في البيئة واللغة سواء : عربى وعرب ، وبلغاء وبلغاء . ثم تكشف لهم عن حقيقة أمرهم ، وهى أنهم قوم مجترئون على ما لم يحيطوا بعلمه ، ولم نفذ عقولهم الى أسرار وحكمه ، وسيتضح لهم عاقبة ظلمهم فى أنفسهم ، كما اتضحت لآخوانهم المكذبين من قبل : « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . ثم ترشد الآيات الى أن جهلهم بحقيقة ما اشتمل عليه الكتاب ، أو عدم إيمانهم به ، لم يكن ناشئا من خفاء الكتاب أو اضطرابه . وإنما هو ناشئ عن صلفهم وتكبرهم عن النظر فى الحق ، وأنه لا ذنب لاحد سوى أنفسهم فى تكذيبهم لتلك الحقيقة الواضحة : « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » ، « أفأنت تهـدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » . فما عليك أيها الرسول سوى أن تدعوهم بحجتك وأن تنذرهم يوم الحشر ، يوم ينكشف لهم الغطاء ، وينزل بهم العذاب ، وقد تخلف عنهم كل ما أغراهم من زينة الدنيا وشهواتها ولم ينتفعوا بشيء منها ، أو كأنهم لم يلبثوا فيها الا ساعة من النهار ، وهنا تسجل الآيات عليهم الخسران الأبدى بما فرطوا فى جنب الله :

« قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين » ، « ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » .

الربع الرابع :

انذار وامهال

(*) من سنة الله مع المكذبين أن ينذرهم ، ثم لا يأخذهم من قريب ، بل يمهلهم فترة يستطيعون فيها مراجعة أنفسهم ، فإذا ما انقادوا وآمنوا ضمهم اليه ، وغفر لهم ما أسلفوا من عناد . ومن الناس من يطغيهم الامهال وينسيهم تلك السنة ، فيتخيلون أنهم في الإنكار على حق ، ويندفعون الى السخرية والاستهزاء بما به ينذرون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » أحق ما تقول ؟ ! . . وهكذا يأخذ بهم الصلف الى استعجال العذاب ، أو السخرية به . .

إمام هذا الطغيان يأمر الله نبيه أن يقرر لهم ان العذاب حقيقة واقعة ، وأنه نازل بهم لا محالة ، وأنهم غير قادرين على التخلص منه : « وما أنتم بمعجزين » . وتأكيذا لذلك في نفوسهم تصور الآيات لهم ما تعالج به صدورهم حينما يطوقهم العذاب من محاولة الاقتداء ، وشدة الندامة على مواقفهم السالفة التي أوقعتهم فيما هم فيه . ثم توقظ ضمائرهم نحو ما استقر في الفطرة البشرية من أن صاحب هذا الوعيد ، وصاحب هذه الدعوة ، هو الله الذي له ملك السموات والأرض ، والذي له الأحياء والأموات ، والذي اليه المرجع والمآب : « هو يحيى ويميت واليه ترجعون » . ثم تأخذ الآيات في بيان فضل الدعوة على الناس ، وأنها موعظة زاجرة لهم عن القبائح ، وشفاء مطهر لقلوبهم من الأوهام والخرافات ، وارشاد موصل للحق والنافع ، ورحمة تقى الإنسان العذاب والخسران . وهو استدلال على صحة الرسالة بنفس تعاليمها ، ثم تؤكد لهم ان هذه المزايا خير ما يجمعون من زخارف الدنيا الفانية التي ليس وراءها الا الخسران المبين .

(*) مقدمة الآيات من ٥٣ الى آخر الآية ٧٠ من سورة يونس .

ثم تبكتهم في أثر من آثار كفرهم ، وهو اغتصاب حق الله في التحليل والتحريم ، وتسجل عليهم الافتراء به على الله : « قل آلا اذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة » أيظنون ان الله يجاملهم ولا يجازيهم ؟ . « ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » .

ثم تقرر الآيات احاطة الله بكل ما يكون من شأن الانسان ، وبكل ما أودع في كونه الذي خلقه « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين » . وأنه بهذا العلم المحيط يقرر الجزاء العادل ، فالمكذب له من جزاء التكذيب ما توعد به المكذبين ، والمؤمن له من جزاء الايمان ما وعد به المؤمنين : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » ، لهم في الدنيا ما يضيء وجوههم ، ويركز سلطانهم من عزة وقوة وجاه ، ولهم في الحياة الآخرة ما يضيء وجوههم من علو الدرجات وزيادة الفضل والعطاء .

خرافة الشركاء

وإذا كان هذا شأن الله مع المكذبين والمؤمنين ، وكان لا تبديل لكلماته ، فليطمئن دعاة الخير ولا يكن في صدورهم حرج مما يذيع المكذبون وليثقوا بنصر الله الغالب على أمره ، الذي له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وليعلموا أن ما يعبد هؤلاء المكذبون من دون الله ، ويسمونه شركاء ، ليسوا في واقع أمرهم شركاء ، وإنما هم ضعفة عجز ، لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً ، « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » . وإنما خيل لهم الهوى والشيطان أنهم شركاء ، فضلوا « وان هم الا يخرصون » ان الله الذي جعلوا له هؤلاء الشركاء من دونه هو الذي جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليبتهوا من فضله . وقد خرجوا بفساد تصورهم عن مقتضى الفطر ، ومقتضى الآيات ، وراحوا يكفرون بالله الذي له ملك السموات وما في الأرض ، ويقولون في شأنه ، ما ليس لهم به علم : « قل ان الذين يفترون على الله الكذب

لا يفلحون ، متاع في الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

الربع الخامس :

(*) تضمنت سورة يونس كثيرا من أنواع الحجج العقلية ، ودفعت كثيرا من الشبه التي كان يثيرها المعاندون حول التوحيد والبعث والرسالة وكانت تذكر في الأثناء بما أصاب الأمم السابقة حينما وقفت من رسلها موقف المكذبين لمحمد عليه السلام : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا » ، « كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين » ، « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

تسليّة وعبرة

ثم جاءت هذه الآيات : « وائل عليهم نبا نوح » تفصل من هذه النذر الإجمالية قصتين ، لهما كثير من الشبه بقصة محمد مع قومه : قصة نوح عليه السلام ، وقصة موسى وهارون . وقصرت الحديث في قصة نوح على ما دعت إليه حالة الرسول مع قومه وقت نزول هذه السورة ، حينما فقد المدافع عنه فيما بينهم ، وهو عمه أبو طالب ، وفقد النصير في البيت ، بموت زوجته خديجة ، واشتد القوم في أذيائه والكيد له ، فأخذت الآيات في تسليته صلى الله عليه وسلم بموقف نوح من قومه ، وثباته على دعوته ، معتمدا في ذلك على الله وحده ، وأرشدته إلى أن طول الأمد على نوح ، وشدة أعراض القوم عنه ، لم يضعف من قوته ، بل تحداهم ، وطلب إليهم أن يجمعوا له كل ما يستطيعون جمعه من قوى الكيد والشر ، وأن يتحروا في أمرهم ، ويزيلوا عنه كل شبهة تعترضهم في سبيل الإيقاع به والقضاء عليه ، ثم يتجهوا له بكل ما هيئوا ورتبوا ، دون أمهال أو تردد ، وسوف يرون أنه لا يرفع لهم رأسا ، ولا يعبا لهم بجمع ، وكيف لا يهتز بجمعهم وهو لم يطلب بدعوته إياهم جاها ولا مالا ، وإنما يطلب بدعوته تنفيذ أمر ربه ، الذي وكل أمره إليه ،

(*) الآيات من ٧١ إلى نهاية الآية ٨٩ من سورة يونس .

وأعتمد في السراء والضراء عليه : « يا قوم أن كان كبر عليكم مقامى وتذكى بآيات الله فعلى الله توكلت » .

فهذا يا محمد ، موقف أخيك نوح ، تمسك به وإن طال عليك الأمد ، واشتدت شكيمه الأعداء ، وثق بأن عاقبتك عاقبته ، وعاقبة المكذبين لك هي عاقبة المكذبين له ، وتلك سنتنا ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فليتحصن أرباب الدعوات الصالحة بإيمانهم وتوكلهم على الله ، وسينظر الله اليهم ، وينزل بأعدائهم ما جرت سنته على أنزاله بأعداء الحق في كل زمان ومكان . وهكذا فعل بقوم نوح ، وفعل بنوح ، « فكذبوه فنجيناها ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

أما قصة موسى وأخيه ، فقد تحدثت الآيات فيها عن مراحل الدعوة من مبدئها الى منتهاها : تحدثت عن العوامل التي استكبر بها فرعون وملؤه عن قبول الدعوة ، وردتها الى أمرين : التمسك بالموثقات الفاسدة « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا » . واعتقاد أن دعوته تسلبهم كبرياء الملك والعظمة ، وتجعلها لموسى وأخيه « وتكون لكما الكبرياء في الأرض » وأخذوا بهذا ينفرون الناس من الدعوة ، ويقولون : « أن هذا لسحر مبين » .

الباطل هزيل

ثم تحدثت عما جرت به سنة المكذبين من أساليب المقاومة الهزيلة التي توقع في روع العامة أن المعارضين على حق في المعارضة والتكذيب ، ولكن الباطل لا ضير له على البقاء أمام الحق ، وسرعان ما تتزلزل قوائمه ، ويقع صريعا في ميدان التحدى « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » . .

وقد كان من المنتظر بعد هذا أن يقبل الناس على الإيمان ، ولكن الجبروت يتخذ صاحبه سلاحا في يده ، يرد به الناس عن طلبية الحق ، وبهذا يحجم كثير عن الإيمان ، ولا يقوم عليه إلا أرباب النفوس القوية ، التي تبذل قوة إيمانهم غشاوة الخوف عن قلوبهم ، « على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

ثم يرشد الله موسى وأخاه الى وسيلة تشد من أزرهم ، وتوقع الرعب في قلوب أعدائهم ، وهى أن يتقاربوا ويجعلوا بيوتهم متقابلة ، سبيلا للتكتل ، وأن يتجهوا الى الله بالدعاء واقامة الصلاة ، فتسهو أرواحهم ويشرق عليها نور الحق .

ثم يتجه موسى الى ربه : « ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ينطلق لسان موسى بدعوة الاخلاص والغيرة على الحق ، فتخترق حجب السماء ، ويسمع موسى من ربه : « قد أجيبك دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » وهكذا تصل القلوب المؤمنة الى نصر الله وتأنيده .

الربع السادس :

النظر في العواقب

(*) لو تمثل للسارق وقت سرقة قطع يده أو للزاني وقت زناه ، حرمانه من الرافة . أو تمثل للذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا قتلهم أو نفيهم من الأرض ، لما أقدم سارق على سرقة ، ولا مجرم على هتك عرض ، ولا مفسد على الانفساد . وتلك طبيعة بشرية تتجلى في المجرمين حينما يأخذهم العذاب ، وينزل بهم النكال . . وهكذا قص الله علينا المرحلة الأخيرة من شأن موسى وفرعون في تأييد الحق ونصرته ، وازهاق الباطل والقضاء على عناصره .

إيمان بعد فوات الاوان

يقتحم فرعون وجنوده البحر وراء موسى وقومه ، بقصد الفتك بهم « بغيا وعدوانا » حتى اذا ما أخذ البحر يطبق عليه ، تنبه ونعیه ، وأخذ لسانه يضطرب بكلمة التوحيد « آمنت انه لا اله الا

(*) الايات من ٩٠ الى آخر سورة يونس ■

الذى آمنت به بنو اسرائيل . ولكن هيهات بعد ان كاد للحق ، وكان في سعة من الامر ، والرسول يدعو ، وآيات الله تتلى عليه وهو لاه بسلطانه ، مفتر بقوته . هيهات وقد نزل القضاء ان يقبل منه ايمان ، او يلحقه عفو وغفران « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . ولم يبق سوى ان يجعل منه آية ، يعتبر بها كل من يصل اليه نبؤه ، ويعرف سنة الله في المفسدين : « هاليوم ننجيك ببذنك لتكون لمن خلفك آية » . وتلك هي الخاتمة السيئة التي زلزلت عرش الطغيان . وجدير بها ان تظل ذكراها ماثلة ، يتذكر بها كل جبار عاقبة الجبروت والطغيان « وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » .

بعد هذا تختم السورة بجملتين من الآيات ، فيهما فصل الخطاب من جهة القرآن وحقيقته ، ومن جهة ثبات الرسول وقوة ايمانه بدعوته .

تأسيس الايمان

أما الجملة الاولى من الآيات ، فقد افترضت وقوع الشك في القرآن وأرشدت الى ما يقطع دابر هذا الشك ، ليكون الايمان عن حجة وبرهان لا خضوعا لقهر ، ولا استسلاما لتقليد : « فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك » وبذلك يخلع الانسان نفسه من طائفة الشاكين المكذبين ، الذين اتضحت لهم حجج الحق ، وران العناد على قلوبهم ، فلم ينتفعوا بالآيات ، وحقت عليهم كلمة الله وكانوا من الخاسرين .

وقد ضربت الآيات قوم يونس مثلا ، فانهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي ومتعهم بما قدر لهم من نعيم ، فهلا يسلك هؤلاء المكذبون سبيلهم ، فينجوا كما نجوا ، ويمتعوا كما متعوا ؟ . ان التكذيب لم يكن مفروضا عليهم ، وان الايمان لا يكون عن قهر والجماء ، ولو أراد الله ذلك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، ولكن خلق الله الانسان وجعله مستعدا للايمان والكفر ، تصحيحا لقاعدة التكليف والجزاء . . . وتلك سنته التي ربط فيها بين الأسباب المقدورة ، والمسببات المطلوبة : « وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويحمل الرجس على الذين لا يعقلون » .

واذن الله ، سنته ونظامه في ايمان من يؤمن وكفر من يكفر ،
 عن اختيار وتقبل لا عن قهر والجزاء ؛ واذا كان الشأن مبنيا على
 ما يختار المرء لنفسه ، فسبيله أن ينظر ويفكر ، فمن أقبل بقلبه على
 المعرفة ، آمن وعرف ، ومن أعرض عن النظر والتدبير فمأذا تنفعه
 الآيات والنذر ، ليس له في سنتنا سوى ما قصصنا من أخبار الذين
 خلوا من قبل « قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، ثم تنجى
 رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » .

ثبات الرسول

ثم أخذت الجملة الثانية من الآيات ، تصور ثبات النبي على
 دعوته وتؤكد انفعال نفسه بها ، انفعالا يبطل ما يوجه اليه من
 مساومة أو محاولة ، وفي هذا السياق ، تقرر الآيات الأصول
 الأولى للدعوة فتذكر تطهير القلب من عبادة غير الله ، واخلاص
 العبادة له وحده وربط القلب به عن طريقته المستقيم الذي لا عوج
 فيه ولا انحراف . ثم توصل باب التوجه الى غيره بالعبادة ، وتحذر
 دعاء غيره أيا كان ، وترشد الى أن غيره أيا كان ، لا ينفع ولا يضر ،
 والعاقل يجب أن يعرف الحقائق ، وأن يركن اليها ، فكما لا يعبد
 غير الله لا يدعو غير الله ، ولا يطلب من سواه ، فهو صاحب
 الأمر ، وصاحب التصريف ، ولم يجعل لأحد من عباده حق التصرف
 في خلقه : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك
 بخير فلا راد لفضله » .

هذا هو الدين الحق ، أوحاه رب الناس الى الناس ، واضح
 المعالم ، بين المسالك ، فمن اهتدى به فقد أنقذ نفسه ، وحصل
 سعادته ، ومن ضل واتبع الأهواء فقد دس نفسه وعرضها للخزي
 والنكال .

أما أنت يا محمد فسر في طريقك وثبت قلبك : « واتبع ما يوحى
 اليك وأصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » .

سورة هود

الربيع الاول :

(*) هود عليه السلام ، هو أول رسول الى قوم عاد . وعاد أول أمة من نسل سام بن نوح ، وقد تحدث القرآن كثيرا عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات في هذه السورة التي سميت به ، وقالوا : انه أول من تكلم باللغة العربية .

وسورة هود من السور المكية ، شأنها كسائر المكي : تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها ، ورد الشبه التي كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها عليه السلام .

عناصر الدعوة الالهية

والمتدبر ، للسورة يرى انها . أولا : قررت عناصر الدعوة الالهية — وهي : التوحيد ، والرسالة ، والبعث — عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت ذلك في أربع وعشرين آية يختتم بها الربع الأول منها : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم . . »

ثم أخذت تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ، بيانا لوحدة الدعوة الالهية ، وتسلية للرسول عليه السلام ، وإنذارا للمكذابين ، واستغرق ذلك الى نهاية الآية التاسعة والتسعين : « وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بنس الرغد المرفود » ثم ذكرت في اثنتي عشرة آية بالوعد والوعيد ، وبسنة الله في أخذ الظالمين . وختمت بتوجيه الخطاب الى النبي ومن تاب معه في مثلها اثنتي عشرة آية مرشدة الى منهاج السعادة والفلاح . وتبتدىء من قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا » الى نهاية

(*) الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٣ من سورة هود .

السورة : والله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون .

كتاب محكم

هذا هو موجز ما اشتملت عليه سورة هود ، وقد بدأت فوصفت الكتاب بالاحكام ، فلا يتطرق اليه خلل . وبالتفصيل فليس فيه خفاء وبأنه تنزيل الحكيم الذي لا يضل ، الخبر الذي لا تخفى عليه مصلحة . تأخذ في تقرير الوجدانية والبعث ، وان الله سبحانه هو وحده المرجع في طلب المغفرة وقبول التوبة ، وان مهمة الرسول ، هي الانذار والتبشير : « الا تعبدوا الا الله اننى لكم نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله . وان تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير . »

وفي أثناء ذلك تشير الى ما يحصل عليه الانسان من سعادتي الدنيا والآخرة اذا هو لبي الدعوة وآمن بها ، وما يصيبه من خسران وشقاء اذا هو استمر على كفره واعراضه ، ثم تصور لنا حالة المعرضين في محاولتهم انكار الحق ، وانطوائهم في ثيابهم على صدورهم مع وضوح الأدلة في أنفسهم وفي الآفاق : « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » . « وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام . »

ثم ترشد الى ان اعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه ، وانما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء وبطر النعماء ، ولو انهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر في قلوبهم ، لكان لهم من صبر الايمان وصالح الاعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . ولكن القوم مع هذا البيان الواضح ما كانوا يتركون احراج الرسول باقتراح ما لا يدخل تحت قدرته من الآيات ، فأخذت الآيات في تسليته ، وبيان ان في القرآن الغناء لمن ان يؤمن ، وليس على الرسول الا أن يقوم بمهمته ، وهي التبليغ والانذار ، وان تكذيبهم آياه لم يكن لطلب حجة هم في حاجة اليها . وانما هي الدنيا ، ملكت عليهم قلوبهم ، وصرفتهم عن النظر في حجة الله التى أنزلها بعلمه ، وسيرورة

ما ينزل بهم من جزاء : « أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثم تزيده تثبيتاً على حقيقة الدعوة بأنها دعوة يؤمن بها من طهر قلبه واتجه إليها ، وإلى نفسه فاتخذ منهما البرهان على صدقها ، ثم رجع إلى تاريخ البشرية وعرف أنها رسالة الله إلى خلقه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة أولئك يؤمنون به » . وما يكفر به إلا الذين حرّموا من ادراك الوجدان وبرهان العقل ، وعميت عليهم أنباء الأولين : « فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك » .

ثم تعود الآيات فتصف المكذبين بجملة من الأوصاف وترشد إلى سوء مصيرهم ، وتسجل مضاعفة عذابهم وحرمانهم من النصير المدافع . ثم ختم عليهم بقوله تعالى : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » . ومن شدة التنكيل بهم تضع أمام أعينهم عاقبة المؤمنين : « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . ثم تضرب المثل للفريقين بما يعرفون به مقدار التفاوت بينهم : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ، أفلا تذكرون » .

الربع الثاني :

(*) هذا هو الفصل الثاني من سورة هود ، ومن سنة القرآن أن يتبع تقرير الدعوة بما يدل على أنها بأصولها وأدلتها ونتائجها في الدنيا والآخرة ، هي دعوة الألوهية الوحيدة ، التي بعث الله بها جميع رسله من مبدأ الخليقة إلى مرحلتها الأخيرة ، مرحلة الاكمال والاتهام ، وهي مرحلة محمّد عليه السلام . وإن محمداً لم يكن بدعاً فيها ، كما أنه لم يكن بدعاً في المقابلة بالكذب من قومه ، وإنما شأنه في الدعوة وفي أعراض قومه عنه ، شأن أخوانه السابقين مع أممهم ، وسيكون شأنه ، وشأن قومه في العاقبة شأنهم وشأن أقوامهم : « فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلّوا من قبلهم ، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ، ثم ننجي رسلكم والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين » .

(*) الآية من ٢٤ إلى نهاية الآية ٤٠ من سورة هود ١٥

وفي هذا السبيل ذكرت السورة نوحا وقومه وهودا وقومه ،
وشعيبا وقومه ، وموسى وفرعون . وفي كل قصة من هذه
القصص عبرة أو عبر ، جدير بدعاة الحق في كل زمان ومكان ان
يمالوا بها قلوبهم ، غيظتمثوا الى نصر الله وتأييده ، وجدير بالمكذابين
ان يتمثلوها حتى لا يحسيهم مثل ما اصاب اسلافهم من قبل .

قصة الاب الثانى للبشرية

وبدأت السورة بالآب الثانى للبشر ، وهو نوح عليه السلام ،
فذكرت انه دعا قومه الى توحيد الله ، وانه انذرهم الشقاء الأبدى
اذا هم اعرضوا عن دعوته ، واستمروا على عبادة الاصنام من دون
الله : « انى أخاف عليكم عذاب يوم اليم » وذكرت ان القوم طعنوا
في رسالته ، فقالوا : انه بشر مثلهم ، والبشر لا يصلح في نظرهم ان
يكون رسولا ، وقالوا : انه لم يجب دعوته الا اراذل القوم يريدون
الطبقة الدنيا « الفقراء » ولو كانت حقة لسارع اليها ارباب المصالح
والثراء « الطبقة العليا » ، وانه لا ينبغي لهم ان يجعلوا انفسهم
وهم اصحاب المال والسلطان في مستوى هؤلاء الفقراء ، يجمعهم
واياهم دين واحد ، ويخضعون معهم لسلطان واحد ، وانهم لا يرون
لهم ، ولا لرسولهم من المزايا ما يهون عليهم ان ينزلوا بانفسهم
الى مشاركتهم في اتباعه والايمان به ، ولعل هذا الموقف من قوم
نوح ، هو اول بعث لفكرة الطبقات ، التى تقلب بها المجتمع
البشرى — ولا يزال — على كتل من الجمر ، محرقة للفضائل ،
مضيعة للكفارات ، فمضى يفيق العالم وهو في آخر مراحل الرقى ،
ويخلص نفسه من هذه العلة الزمنية التى اندفع اليها وهو في طور
الطفولة الذى لا رشد فيه ؟ . .

ثم جاءت الآيات تفند هذه الطعون ، وتقتلع هذه الفكرة من
اساسها وتقرر أولا ان صاحب الدعوة ، وقد توافرت لديه أدلة
الايمان بها ، وليس من شأنه ان يكرههم عليها اذا خفيت عنهم ،
وهو لا يطلب منهم مالا ولا عزة ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان ،
وانما يدعوهم اليها طلبا لخيرهم ، وعملا على مصلحتهم ، فعلام
هذا الموقف الذى ان دل على شيء فانما يدل على التمرد والبعد
عن فهم الحقائق ؟ . . والا فكيف ينقمون منه ان اجاب الفقراء
دعوته ؟ وهى دعوة الله الذى لا يرن خلقه بميزان الغنى والفقر ،

ولا بميزان القوة والضعف وانما يزنهم بمقياس الصفاء والاخلاص ،
والايمان بالحق الذى يدعو اليه . كيف ينقمون منه هذا ويطلبون
منه أن يطردهم : « وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم
ولكنى أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان
طردتهم » ؟ .

ان النبوة ليست أكثر من اصطفاء الله لمن يقوم بتبليغ رسالته ،
وليس من لوازمها ، بل ولا يصح أن يكون من لوازمها أن يكون
الرسول ملكا ، أو أن يكون عنده خزائن الله ، أو أن يكون محيطا
بغيب الله فهو بشر ، يقف عند حدود البشرية ، لا يتجاوزها الا
بمقدار ما يوحى اليه ، وهو بذاته لا يعلم الا ما يعلمه البشر ،
ولا يقدر الا على ما يقدر عليه البشر ، وان الله قد كلفه بتبليغ
رسالته ، ولم يجعل الناس امامه فى التبليغ الا كما جعلهم فى الخلق ،
سواسية لا طبقات ، ولا أسياد ، ولا أراذل « ولا أقول للذين
تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ،
انى اذا لمن الظالمين » .

سفاهة قوم نوح

وقف نوح مع قومه ألف سنة الا خمسين عاما ، يقيم الحجة ،
ويدفع الشبهة حتى أخرسهم الحق ولم يجدوا منفذا للقول .
فراحوا يستعجلون العذاب الذى توعدهم به ، شأن الموهل فى
العناد ، يلقي بنفسه فى اليم ، أو فى النار ، حتى لا يقال : غلب على
أمره ، وخضع لغيره ، ولا يدري أنه يسجل على نفسه نهاية الخزي
فى الاعراض عن الحق تبعا لشهوة باطلة ، أو خيال فاسد : « يا نوح
قد جادلنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » ،
فيقرر لهم نوح الحق الذى يؤمن به « انها يأتكم به الله ان شاء
وما أنتم بمعجزين » .

وتأتى المرحلة الأخيرة فيعلم الله فيها نوحا انه لن يؤمن من
قومه الا من قد آمن ، فاطو صفحة جهادك معهم ، واتخذ وسيلة
النجاة لك ولقومك : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني
فى الذين ظلموا انهم مغرقون » فيمتثل نوح الأمر ، ويصنع الفلك
« وكلما مر عليه ملا من قومه سخرؤا منه » ، فيؤكد لهم ان عاقبتهم

في موقف السخرية والعذاب ، هي عاقبتهم في موقف السخرية بالرسالة ، سيصيبهم خزي العذاب ، كما أصابهم خزي الحجة والبرهان . وان من العذاب ما يرغص صاحبه الى الهامات ، وهو عذاب الرسل والمجاهدين في سبيل الحق يصيبهم على أيدي الطغاة الظالمين ، وهو عذاب مستعذب ، مشرف لصاحبه ، يعقبه نعيم مقيم ..

ومن العذاب ما ينزل بصاحبه الى أحط الدرجات ، ويكون مثلاً يشقى صدور المؤمنين ، ويزعزع كيان المبطلين ، وهو عذاب الأعراض عن الحق والكيد لأهله وهو عذاب الخزي الذي يعقبه عذاب دائم اليم « فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

الربع الثالث :

نبوة الايمان هي الحق

(*) صنع نوح السفينة ، وأتم عدته ، ونفذ ارشاد الله ، وحمل فيها مع أتباعه من كل صنف زوجين اثنين ، وفار التنور ، وتفرج الماء حتى طغى ، وأخذت السفينة تجري بهم في موج كالجبال « ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » فأبى الولد ، وعزف عن دعوة أبيه ، واعتقد انه يعتصم بغير الله ، ودفعت نوح شفقة الأبوة الطبيعية ، فطلب من الله انجاز وعده في أهله معتقداً أن ابنه من أهله ، الذين وعد الله بنجاتهم مع نوح : « ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وانت أحكم الحاكمين » فإرد الله عليه بأن النبوة الطبيعية لا مكانة لها عند الله ما لم تشد أزرها بنوة الحق ، والاعتصام بأمر الله « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ، وهذا في رسالة محمد يؤكد ويفصل ما جاء في رد الله على نوح : « يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح »

(*) الايات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٠ من سورة هود .

ويدرك نوح زلته ويلتمس من ربه المغفرة : « انى اعوذ بك من أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » فيغفر الله لنوح زلته ، ويتم عليه وعلى من معه نعمته : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

الطوفان

وقع الطوفان ، وذهب بأعداء الله ، أعداء الحق ، وتلك عبرة القصص فى القرآن ، وقد صرف الناس عنها بحوث وضعت فى الكتب والتفاسير ، شغل الناس بها عن العبر والعظات ، وكان من ذلك الكلام الكثير فى عموم الطوفان وخصوصه ، وعموم رسالة نوح وخصوصها ، فمن قائل : بأن الطوفان لم يكن عاما ، وان التناسل البشرى لم يكن خاصا بذرية نوح ، ولم يكن نوح الأب الثانى للبشر ، وأن رسالته كانت خاصة بقومهم بحكم السنة الالهية فى إرسال الرسل الى اقوامهم . ومن قائل بأنه لم يكن بسطح الأرض سوى قوم نوح الذين لم يؤمن منهم الا قليل ، وهم الذين كانوا معه فى السفينة ، وان رسالته كانت عامة بحكم انحصار الناس فى قومه لا بحكم انه مرسل لهم ولغيرهم ، وان نوحا هو الأب الثانى للبشر ، تناسلت البشرية من ذريته فقط بعد الطوفان ، وان الطوفان كان عاما للمعمور من الأرض اذ ذاك .

هكذا اختلف الناس واكثروا من القول .

رأى الامام الأكبر

والذى نراه ان المسألة من المعارف البشرية التى تركها الوحى لبحث الانسان ، لا تفسيرا للقرآن ، وليس من مهمة القرآن أن يحدد الأوضاع ، ولا أن يعين الوقائع ، وانما مهمته الارشاد الى ما تدل عليه القصة من جهات العظة وانواع العبرة . وعلى كل فـ « نوح » أرسل لقومه فقط ، أما انه كان فى المعمورة غير قومه ولم يرسل اليهم ، أو انه لم يكن فيها سواهم ، فهذا شىء ليس له تأثير فى هدف القصة ، ولا يمس اختصاص محمد عليه الصلاة والسلام بعموم الرسالة لقومه ولغير قومه الموجودين على سطح

الأرض ، ومن سيوجد عليها الى يوم الدين : « قل ياأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

هذا . . . وفى العظة المقصودة من هذا القصص ، وفى دلالاته على أن القرآن من عند الله ، يختتم الله قصة نوح بقوله لنبيه على مسمع من القوم : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » .

قصة هود

ثم تتبع الآيات قصة نوح : بقصة هود عليه السلام ، فتذكر دعوته أيضا الى قومه ، وأنه أخذ بهم الى سبيل الخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده ، واستغفارهم مما هم فيه من الطغيان : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . وتذكر معارضة قومه له وانكارهم عليه ، وان آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ، فيتبرا هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعبا بهم ولا بجمعهم : « انى توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » . .

وتذكر بعد ذلك خاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله فى نصره اوليائه ، وخزى أعدائه :

« ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد تجددوا بآيات ربهم وعصتوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » .

سورة الكهف

تقديم :

(*) سورة الكهف هي السورة الثالثة من سور خمس في القرآن الكريم ، بدئت بـ « الحمد لله » قبلها سورتان هما الفاتحة ، والأنعام ، وبعدها سورتان هما سبأ ، وفاطر . وسورة الكهف تضع حدا عن طريق التربية الروحية لضلال قديم ألفه الناس في تقويم الحياة ، ذلك هو تقدير القيم الانسانية بحظوظ المال والثراء والجاه ، وتبين أن ما على الأرض من زينة ونعم مادية إنما كان طريقا لاختبار الناس أيشكرون أم يكفرون ؟ . . وليس هو كل ما يقصد من الحياة ، بل هناك ما هو أسمى منه وأرفع : « أنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » .

قصص وأمثلة للعظة والعبرة

وفي سبيل ذلك نقص ثلاث قصص لكل منها دلالتها الخاصة في تقدير الحق بذاته ، وارتباطه بطهر العقيدة ونقاء النفس لا بالمال ولا بالحياة : قصة أصحاب الكهف ، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » . قصة موسى مع العبد الصالح ، وهي قصة التواضع الذي لا يعرف — في سبيل العلم . والتكامل بالمعرفة — التكبر ولا الغرور : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » . . وقصة العدل وأغاثة الضعيف ، وهي قصة ذي القرنين الذي أنصف بعدله وقضى بقوته على المفسدين .

وكما استخدمت السورة في سبيل هدفها هذه القصص الثلاث استخدمت فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة ، بيئت بها أن الحق لا يرتبط بكثرة المال ولا بعلو الانسان ، وهو مثل الغنى المكاثر بماله

(*) مقدمة عامة لسورة الكهف .

والفقير المعتز بايمانه : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين . . » ، ومثل الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » ومثل إبليس وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس . وهنا حذرت الآيات أبناء آدم أن يتخذوه وأعوانه أولياء من دون الله وبينت لهم أنه وذريته أعداء لهم من أول النشأة ، يدفعونهم إلى الشر ويكيدون لهم عن طريق الاغواء ، ويصرفونهم عن أبواب النفوس الزكية ويطلبون اليهم أن يتردوهم عن مجالسهم ، لما هم عليه من فقر وضعف .

ثم تبين أن هؤلاء الذين يحاولون اضلال الناس عن الحق ليس لهم في شأن الله ونظام خلقه من أمر ، فهو لم يحضرهم وقت أن خلق ونظم ، وهو لم يعتمد عليهم في فعل أو يشركهم في رأي ، فكيف يجعلون لأنفسهم سلطان التوجيه ؟ . . وكيف تروج عند الناس وسوستهم . . ؟ « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » . فتخلوا عنهم كما سيتخلّى عنهم شركاؤهم ويسلمونهم إلى النار » ولم يجدوا عنها مصرفاً . ثم تشير الآيات إلى أن اعتراضهم عن الحق لم يكن ناشئاً من حاجة الحق إلى دليل وإنما هو الطغيان الذي يمنع صاحبه من الإيمان ، ويجعله يجادل بالباطل ليحضر به الحق ويحول بينه وبين التفكير في العاقبة فلا يتذكر إلا إذا استمر به العذاب أو فاجأته سنة الأولين ، تلك سنة المنكرين من قبل ، وسيرها المنكرون من بعد .

ثم تذكر الآيات أنه لولا رحمة الله بعباده وأنه يمهّلهم رجاء التوبة لعجل لهم العذاب ، ولسكنه جعل لهم موعداً لن يجدوا من دونه مصرفاً عن العذاب وتلك القرى أهلكناها لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً » .

وجوب التواضع في طلب العلم

ثم تذكر الآيات قصة التواضع في طلب العلم الماثلة فيما جرى بين موسى والعبد الصالح : فإن موسى مع علو شأنه في المعارف

الالهية لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق في سبيل العلم دون أنظر الى مكانة من يريد التعلم منه ، وفي هذا ما يخفف حدة الكفار على الفقراء ، ويرشد الى أن العلم أسمى من المال ، وأنه لا ينبغي أن يتخذ فقر العلماء مانعا من السعى اليهم ، وتزكية النفس بعلومهم ، فهذا موسى نبي الله وكليمه ، لا يكاد يعلم بالعبد الصالح وبما عنده من علم حتى يجمع أمره على الوصول اليه كيفما كان الطريق « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » .

والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم له نفسه مستأذنا في أن يجعل نفسه تبعا له ليعلمه : « هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » . فيطلب منه العبد الصالح التسليم فيما يرى والبعد عن الجدل ، فيطمئنه موسى على غاية الخضوع : « ستجدني أن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » . . فيعده العبد الصالح بالبيان إذا هو التزم الشرط : « فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » .

وعلى هذا التعاقد ركبا السفينة ، وكان أول ما فوجيء به موسى أن العبد خرقتها ، وكان لخرقتها هول في نفس موسى أنساه الالتزام السابق ، فأنكر عليه ، ثم عاد يعتذر بالنسيان .

وكان الحادث الثاني أن قتل العبد الصالح غلاما ، فعاد موسى الى الإنكار وعاد العبد الصالح الى اللوم ، وموسى الى الاعتذار ، وهدده صاحبه بقطع العلاقة أن عاد الى الثالثة ، وعاد الى الثالثة فأنكر عليه إقامة الجدار المائل ، وهو لقوم لم يحسنوا اليهم ، وهنا نفذ العبد الصالح تهديده لموسى وقال : « هذا فراق بيني وبينك سائبك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

الربع الأخير

سر الأحداث التي أنكرها موسى

وفي هذا الربع يفى العبد الصالح لموسى بما التزم ، فيكشف له عن سر الأحداث التي فعلها وأنكرها عليه موسى ، وهي خرق

(*) الآيات من ٧٩ الى آخر سورة الكهف .

السفينة ، وقتل الغلام، والاحسان لقوم لا يعرفون قيمة الاحسان. وقد كان منشأ الانكار عند موسى انه لم يعرف سببا يبيع ائتلاف مال الغير ولا قتل النفس ، ولا تحمل المشقة لقوم لا يطعمون المحتاج. ويدور البيان على أن وراء الظاهر واقعا يعلمه العبد الصالح ولا يعلمه موسى ، وهو الذى حمل العبد الصالح على فعل ما فعل ، وذلك الواقع هو أن ملكا ظالما كان يتتبع السفن الصالحة فى البحر يغتصبها من أهلها ، فرأى العبد الصالح أن يعيها فتسلم لأهلها الفقراء : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر » . وأما الغلام ، فقد علم العبد الصالح أن بقاءه مفسد لأبويه ، فاحتفاظا بسعادتهما ، وابقاء على إيمانها قتل جرثومة شرهما : « فأردنا أن يبدلها ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما » .

وفى حادث الغلام يتجلى بوضوح معنى قوله تعالى : « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . ومعنى قوله تعالى : « وما فعلته عن أمرى » فالله واسع العطاء يهب ما يشاء من رحمته وعلمه لمن شاء من عباده .

ولا متمسك لمن يدعون علم الغيب بهذه القصة ، فان أحاطت بها كان نبيا ، يوحى الله اليه ولا يقره على ضلال ولا بهتان . ومن أين لهم مثل موسى نبي يوحى اليه ، وتجري حوادثهم على يديه .

وأما الجدار فليس الشأن فيه لأهل القرية ، وإنما هو لايتام كان لهم تحته أموال ، فمحافظة عليها أقام العبد الصالح الجدار . وتلتقى أحداث العبد الصالح الى حد ما ، مع قاعدة ارتكاب «أخف الضررين » التى تبيع للانسان أن يقدم على فعل فيه شر ما ، متى علم أن فيه خيرا أكثر من شره وقديما قيل : « شر قليل فى سبيل خير كثير خير كثير » .

ولقد عرف موسى من هذه الرحلة ان وراء الظاهر الذى يحيط به الانسان فى عاداته باطنا تشرق عليه فيه انوار الحقائق ، وبذلك يأخذ نفسه بالصبر فى تجريد النفس عن التأثير بالعلائق المادية ، والمنفصات البشرية ، ويصفو لله فى الدعوة الى الله .

نبا ذى القرنين

ثم تقص الآيات نبأ ذى القرنين وهو ملك مكن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على قرنى المعمورة شرقا وغربا ، وكان من عدله الذى تقوم عليه الحياة وتسعد به الجماعة ذلكم المبدأ العظيم .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا » .

ولا تصلح رعية لم يضرب فيها على أيدي الظالمين ، كما لا تصلح رعية لا يلقي المحسنون فيها جزاء احسانهم ، فبخس احسان المحسن لا يقل عن ضرر الجماعة عن محابة المسئء ، كلاهما ينزل بالجماعة الى الحضيض . فاذا كانت محابة الظالم تغرى بالظلم فإن بخس الاحسان يخرج الصدر ويميت قوة النشاط . وتلك هى العبرة الخالدة فى هذا الجانب من قصة ذى القرنين . .

أما الجانب الآخر من قصته : فهو مائل من قوته واعتماده على الله فى اغاثة المستضعفين ونصرتهم وانقاذهم من انفساد المستعمرين المغيرين عليهم وعلى بلادهم بدون حق .

يصل ذو القرنين الى قوم لا تساعدهم لغتهم على حسن التفاهم معه ، ولكنه يفهم شكواهم والتجاءهم اليه : « قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ؟ . فتدفعه عاطفة الخير الى التلبية معتمدا على ربه قال : « ما مكنى فيه ربي خير » . ويطلب منهم أن يتحملوا نصيبهم من المعونة باخلاص وقوة فلا يتواكلوا . ولا يلقوا بكل أمرهم عليه ، ويقيم ذو القرنين السد بين الجبلين ، فلا يجد المفسدون اليهم سبيلا : « فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

واجب الراعى والرعية

وهذا شأن الملوك المخلصين المحبين للشعوب ، ولا تقبل دعوى خدمة الشعوب الا اذا اقترنت بالصدق فى عمل حازم يقى الشعوب

ضرر المفسدين ، وواجب الأمة مع هؤلاء المخلصين أن يبذلوا في معونتهم ما استطاعوا بقوة واخلاص . أما دعوى خدمة الشعوب مع الكيد لها وتأليب الأعداء عليها ، فهي دعوى يجب أخذ الحيطة منها وواجب الأمة حينئذ هو اعتمادها على نفسها وعلى قوتها المنابعة من الايمان وحب الوطن .

ثم تقرر الآيات ان الله بسننه يترك الناس في هذه الحياة يتدافعون ويتنافسون : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » . ويستمر شأنهم كذلك الى يوم الدين فتتكشف لهم الحقائق بعد أن كانت أعينهم في غطاء ، وبذلك تحذر الكافرين وتعلن أوصاف الآخرين ، وتردها الى الكفر بآيات الله والاستهزاء برسله . ثم تذكر جزاء المؤمنين الصالحين ، وتقرر سعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه ، ثم تأمر الرسول بتقرير بشريته ، وأن يجمل للقوم رسالته : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » .

سورة مريم

الربع الأول :

كهيعص

(*) سورة مريم من السور المكية التي تقرر توحيد الله وقدرته وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء . وهي إحدى تسع وعشرين سورة بدئت بحروف هجائية . وقد لوحظ أن هذه السور تتحدث عن غريب غير مألوف ، كالقرآن ، وأنباء الغيب ، والتقوية بشأن القلم والخلق ، والايجاد على طريقة غير مألوفة . ولعلها لهذا بدئت كلها بباء غير مألوف . . وهو تلك الحروف الهجائية التي تنطق بأسمائها لا بمسمياتها . وذلك ليكون الباء الغريب قرعاً للأسماع واعداداً لتلقى غرائب لا تعرف السنين المألوفة .

زكريا ويحيى

وقد ذكرت سورة مريم من تلك الغرائب قصتين : قصة نبي الله زكريا وولده يحيى ، وقصة السيدة مريم وولدها عيسى ، وأرشدت في أولها أن ما ستحدث به عن زكريا واجابة دعائه ، أثر لرحمة الله به ، ولا ريب أن الخلف الصالح ، الذي يحتفظ بمكانة أبيه ويقوم بمهمته من بعده ، امتداد لحياة الأب واستمرار لأثر يتحقق نفعه في الممات ، كما تحقق نفعه في الحياة .

الدعاء المجاب

عرف زكريا بدراسة أحوال إقاربه أن ليس فيهم من يطمئن اليه في القيام بدعوته ، ورأى رحمة ربه لمريم وهي في كفالتها — كما تحدثت عنها سورة آل عمران — فشجعه ذلك على دعاء ربه أن

(*) الآيات من أول السورة حتى نهاية الآية ٣٦ .

يمنحه على كبره وليا يرثه في مهمته ؛ فابتهل بعجزه وضعفه وخوفه من اقاربه : « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيئا » ، « وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا » . فاخترق دعاؤه الحجب واستجاب له ربه : « يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ، واكمل البشرى بالخلال الطيبة التى صاغ بها عطيته ، فأخذ السرور من زكريا مأخذه ، وعاد الى المناجاة فرحا مستبشرا : « رب انى نبشرك بغلام » . فسمع من ربه الكلمة النافذة : « هو على هين » . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » . . فيعود زكريا ملتمسا علامة يعرف بها حصول الحمل ، ويتعجل بها السرور الواقعى : « رب اجعل لى آية » ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا » . وقد جاءت هذه الحالة فكان لا يخاطب قومه الا بالوحى والاشارة .

وعبرتنا من قصة زكريا أن اقرب الدعاء الى الاجابة ما كان نابعا من القلب وخفيا حتى عن النفس ، ومقترنا بدلائل الذلة والحاجة ، وأخيرا ما كان مقصودا به وجه الله والنفع العام .

قصة مريم

وتذكر السورة قصة مريم وقد آخى القرآن بين القصتين في غير موضع ، وقصة مريم أدخل في الغرابة من قصة زكريا . ولذلك ذكرت قبلها تمهيدا لها ، وقد تحدثت سورة آل عمران عن ولادة مريم وبشارتها بعيسى وبشأنه في بنى اسرائيل ، وتحدثت مسورتها هذه عن حملها بعيسى ، وعن موقفها حينما تمثل لها روح الله بشرا سويا ، وعن خواطرها النفسية حينما بشرها بالغلام : « انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم اك بغيا » . ومضت الخواطر تلعب بنفس مريم حتى جاء زمن الوضع فتضاعف همها ، واشتد حزنها ، لا لشك في نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » . فيثبتها الله بآياته ، وينزع منها عوامل الاضطراب والخوف : « فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » ولكن مريم لا تزال حاجتها النفسية تلح في معرفة ما تجيب به قومها . وهى لنفسها أعرف ، ولا تملك من أمر الناس شيئا ، فتليها الرحمة الالهية : « غاما ترين من البشر

أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما . وقد كان من قومها ما قدرت : « يا أخت هرون ما كان أبوك أمرا سوء وما كانت أمك بغيا » . فالتزمت الصمت وأشارت الى كلمة الله ، فأجابهم بلسان بين واضح : « انى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبراً بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

بذلك تمت نعمة الله على مريم كما تمت على كافلها من قبل . وهكذا أجمل عيسى وهو فى المهد رسالة السماء الى الأرض . « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » ولكن الأهواء أخذت بالناس فى شأنه الى جهات متباينة ، فمنهم من قال به على مريم بهتانا عظيما ، ومنهم من قال به على الله شيئا اذا : « ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه ، اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

الربع الثانى :

قصة ابراهيم

(*) وتذكر الآيات ، بعد قصتى زكريا ومريم ، قصة ابراهيم ، ولابراهيم مكانة انعقدت عليها القلوب . وقد عنى القرآن بالحديث عنه عناية خاصة . فتحدث عن امامته ، وعن بنائه البيت ، ودعوة الناس التى حجه ، وتحدث عن رحلته ، وأسلوبه فى الدعوة والحجاج ، وتحدث عن كرمه ، وتضحيته بنفسه وولده ، وتحدث عن وصيته لذريته ، وتحدث عن علاقة محمد به ، وبين انه أثر دعوته ، وان رسالته من رسالته . ومن ذلك كله اتخذ القرآن حجة لمحمد على مناوئيه من مشركين وكتابين

وقد قال بعض العلماء فى ابراهيم : « كان فتى الفتيان ، سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان وماله للضيفان ، واهله للوديان واقرا كل ذلك فى القرآن » .

(*) الآيات من ٤١ الى نهاية الآية ٦٢ من سورة مريم .

بهذه ونحوه خلد الله ابراهيم : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » . وكان من مظاهر ذلك انه ما من مسلم ولا كتابي ولا مشرك الا وهو يقدر ابراهيم ، وما من مسلم يصلي ليلا او نهارا فرضا او نفلا ، الا ويدعو الله في صلاته ان يصلي ويسلم على محمد ، وعلى آله ، كما صلى وسلم على ابراهيم وعلى آل ابراهيم . وهذا هو ابراهيم الذي يأمر الله نبيه ان يذكره لقومه ، فيخففوا من حداثهم ، وان يذكره لنفسه فيتأسي به ، ويهتدى بهديه .

أسلوب ابراهيم في الدعوة

وتخص سورة مريم جانباً من جوانب ابراهيم هو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والأدب الجم ، الذي من شأنه الاستيلاء على العقل المعاند والنفس العازفة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخلل والفساد : « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لاتعبد الشيطان انّ الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . وهكذا يسلك ابراهيم في دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدة والانكار والتهديد : « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيقابل ابراهيم تهديد أبيه بالسلام عليه والدعاء له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا . » وهكذا تقف البنوة البارة من الأبوة القاسية . ومن قبل وقفت هكذا الأبوة الرحيمة مع البنوة العاقبة ، دعا نوح ربه لنجاة ولده ، فعاتبه ربه وبين له انه ليس من أهله ، ولكن للأبوة مكانتها ، فلم يفكر الله على ابراهيم سلامه على أبيه ولا دعاءه له ، احتفاظا باحترام البنوة للأبوة وان كانت مشرقة ضالة . « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . يعتزل ابراهيم أباه وقومه ، ويلقى بنفسه في أحضان ربه ، فيهبه الذرية الصالحة التى تسير في طريقه وتواصل دعوته : « فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

رسل كرام

ثم تقف الآيات بذكر موسى وما كان عليه من صفاء النفس وإخلاص القلب لله ، وما خصه الله به من المناجاة والتكليم والتقريب : « وقربناه نجيا » ، ثم تذكر اسماعيل ، وما كان عليه من الصدق مع نفسه ، ومع ربه ومع أسرته التي هي درعه في دعوته ، والصدق حلية الإيمان وسبيل النجاح ، وطريق الخير والفلاح . .

وتذكر ادريس وما كان فيه من مكانة الصديقية والرفعة عند الله .

وبعد أن تذكر الآيات هؤلاء الرسل كلا بخاصته ، وتشدد بذكرهم أزر الرسول في دعوته ، تعود فتجمعهم في إطار من الشرف الإلهي ، وتنسبهم جميعا إلى آدم . فتربط بينهم برباط الرحم الإنساني العام ، كما ربطت الرسالة بينهم برباط الوحي الإلهي .

ثم تشير إلى الرباط النسبي الخاص بذرية نوح ومن كان معه في السفينة ، والخاص بذرية إبراهيم وإسرائيل ، ثم تذكر امتيازهم الديني ومكانتهم الربانية : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن خلطنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

وبإزاء هذه الشجرة الربانية النورانية تضع الآيات شجرة جافة مظلمة ، انحرفت في وجهتها عن سلسلة آبائهم الأولين ، تغلبت عليهم الشهوات ، وسخرتهم الأهواء وأنستهم حق الله ، وسجلت عليهم سوء العاقبة ، ولا نجاة إلا لمن عاد إليه رشده فادرك الحق ، وسلك طريق المرضيين عند الله وأولئك جزاؤهم « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب أنه كان وعده مأتيا . لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » . .

الربع الثالث :

من وصف الجنة

(*) قال تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » وعد الله فى الآيات السابقة الذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات بالجنات ، ثم وصفها بيانا لمكانتها وعلو شأنها بأنها ليست كجنات الدنيا تزول وتغنى ، ويعتريها النقص والذبول ، وإنما هى جنات عدن واقامة دائمة ، وبأنها منحة الرخمن لعباده جزاء ايمانهم بها عن طريق الوحي دون رؤية ومعاينة ، وبأنها مطهرة من لغو الدنيا وباطلها ، وان كل ما فيها غذاء للأرواح ، وسلام وأمان ومشاهدة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وتأكيذا لاستحقاقهم اياها يخلق الله عليها صفة الميراث الذى يصل الى الانسان بحكم القانون العام الذى لا اختيار له فيه ، وكثيرا ما تستعمل كلمة « الارث » ولا يراد منها الانتقال من مالك سابق الى آخر لاحق ، وإنما يراد بها ثمرة العمل والجهود وذلك كما يقال : هذا عمل يورث الشرف ، ومعناه يحصله ويخلده . ومن هذا قوله فى جزاء العاملين بالجنة : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » .

ونظرا الى ان اهم اهداف البيان القرآنى تقوية الجانب الروحى ، ولفت النظر الى ما يؤازر التقى فى تحمل أعباء التكليف ، كان من سنته المفاجأة فى أثناء الموضوعات الخاصة بما يجدد للقلب نشاطه ، ويجعله على اتصال دائم بربه يستمد منه العون والقوة ، ويطمئن به على حسن معونته ، وبلوغ غايته ..

ترى ذلك فى سورة البقرة اذ يفاجئ وهو فى أحكام الطلاق والأسرة بقوله : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وفى سورة طه اذ يفاجئ — وهو فى حديث يتصل بالناس جميعا — بقوله فى شأن خاص بتلهف الرسول على تلقى الوحي : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه وقل رب زدنى

(*) الآيات من ٦٢ الى آخر سورة مريم .

علما « . ومن ذلك قوله في سورتنا على السنة ملائكة الوحي في شأن نزولهم على النبي صلى الله عليه وسلم وطمأننتهم اياه على السير فيه الى النهاية : « وما ننتزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا » . .

البعث حق

ثم تثقل الآيات وترد على حجج المكذبين في انكار البعث : « ويقول الانسان انذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . ثم تفرض الآيات وقوع البعث وانه غير محتاج الى برهان ، وتترك الحديث عن امكانه الى الحديث عما يكون فيه لهؤلاء المفكرين من مشاهد العذاب ، وما يلقون من آلام : « فوريك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحشرنهم حول جهنم جثيا » .

غرور

ثم تذكر غرور الكفار بدنياهم ، واعتزازهم بأموالهم ، وزعمهم انهم متفوقون بها عن هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين لا جاه لهم ولا سلطان ، وترد عليهم بذكر أسلافهم الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورثيا » . وترشد الى تمكينهم من ظواهر هذه الحياة ليس الا اغراقا لهم في الفتنة والاختبار ، وسيرون عاقبة أمرهم وأمر الذين بهم يستهزئون ، سيحصى عليهم كل شيء وسيجمعون في ساحة العدل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون : « فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا » . « سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا » .

زعماء الضلال

ومن عادة الضالين في كل زمان ان ينتحلوا لهم أئمة وزعماء ، ويصوروهم للناس أن بيدهم عزهم وفلاحهم . وعن ذلك الطريق

يضلون كثيرا من الناس عن سبيل الله . والآيات تؤكد لهؤلاء وأمثالهم ان هؤلاء الأئمة المنتحلين سيتبرعون منهم ويكفرون بعبادتهم ، يوم تنكشف الحقائق ، فيحشر المتقون الى الرحمن وغدا . ويساق المجرمون الى جهنم وردا ، ليس لهم من شافع ولا نصير .

ثم تعرج الآيات على زعم باطل ، صوره الوهم الفاسد ، والهوى المتبع لكثير من الطوائف ، فاتخذوه عقيدة يذيعونها وينتقصون الله بها ، ينافحون عنها ، ويفسدون بها فطرة الله التي شهد بها كونه في تنزيه الله عن الوالد والولد : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا ادا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . »

صورتان

ثم تختتم السورة بوضع صورتين متباينتين :

صورة للذين آمنوا وعملوا الصالحات يتجلى فيها ارتباط قلوبهم ، وارتباط قلوب الناس بهم برباط المودة والمحبة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا »

وصورة للكافرين الجاحدين ، تمزق العداوة فيها ما بينهم من صلات ، وتملأ قلوبهم وقلوب الناس بالتباغض حتى يقضى عليهم بأيديهم ، ويفنى بعضهم بعضا ، فنتم عليهم كلمة الله : « وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا »

سورة طه

الربع الأول :

(*) وسورة طه من السور المكية الأولى ، وقد نزلت لشدة أزر الرسول ، وتقوية روحه ، وعدم التأثر بما يلقي من الكيد والعناد ، ولارشاده الى أن مهمته هي فقط التبليغ والتذكير ، وسيستفاد بهذا التذكير من طهرت نفسه وأشرق عليها نور الفطرة الطاهرة من الأهواء وزخارف هذه الحياة ، وأنه ليس من مهمته أن يؤمن الناس ، حتى تشقى نفسه ويضيق صدره بكفرهم وامراضهم : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى » .

وبعد أن ترفع عنه تبعة كفرهم ، تطمئننه على نجاح دعوته ، من جهة أنها دعوة القوى القادر الذي خلق الأرض والسموات وبسط سلطانه بالرحمة على خلقه ، ونفذ تدبيره الى بواطن ما خلق ، واكتنه علمه سر القلوب واحساسها .

ثم تجميل له أوصاف الجلال والجمال في كلمة التبليغ التي أمر بدعوة الناس اليها وتذكيرهم بها : « الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى » .

ثم تقص عليه ، تطمينا وتسلية : نبأ أخيه موسى وقد أرسل بما أرسل به وقوبل بأشد مما قوبل به ، فصبر وكانت له عاقبة الصابرين ، وكما تذكر له قصة الصبر على مكائد القوم ، ونتيجته في موسى ، تذكر له قصة التسرع والتأثر بالمغريات في آدم ، وما لحقه بعدم الثبات والعزم ، وبذلك عالجت السورة رسول الله من الناحية الايجابية التي يريد الله أن يتحلى بها في دعوته وهي الصبر ، وعالجته من الناحية السلبية التي يريد الله أن يعصم نفسه منها وهي الحزن وعدم الثبات .

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٤٧ من سورة طه .

ثم تختتم بأجمال المبادئ التي تملأ قلبه بالصبر والوثوق بحسن العاقبة ، فتأمره بالصبر على ما يقولون ، وبتنزيه الله وتذكره الاعتماد عليه . وتحذره أن يمد عينه إلى متعة الكافرين من زهرة الحياة الدنيا ، وتأمره بتزكية أهله وتوجيههم لعبادة الله وحده ليكونوا عوناً على أداء مهمته كما كان هرون عوناً لموسى .

ثم تنزع من نفسه خيال الحاجة إلى الرزق وتكله إلى الله المنعم الذي تكفل بحاجته ورزقه : « ورزق ربك خير وأبقى » . « نحن نرزقك والعاقبة للمتقوي » ثم بعد أن تزوده السورة بالأسلحة التي يبذل بها خواطر الضيق والحرص ، تغرس في نفسه كلمة الواثق من نفسه ، ومن دعوته ، ومن عاقبته : « قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى » .

معنى الشقاء هنا

تلك سورة طه ، ومن هذا العرض الوجيز يتضح أن الشقاء المذكور في قوله : « لتشقى » ليس هو الشقاء الجسماني الذي نشأ من طول إقامته في التهجد على إحدى قدميه حتى تورمت ، وأن « طه » ليست نداء له بمعنى يارجل ، أو فعلاً يأمره بأن يطأ الأرض بقدميه ، ليس شيء من ذلك كما تريد أن تفسره الروايات ، وليس من السهل — والرسول يعرف دين الله ويسره — أن يقبل شيء من هذا . كما أنه لم يعهد في القرآن الكريم نداؤه صلى الله عليه وسلم باسمه العلم ، فكيف ينادى بأعم العناوين كيا رجل ؟ . ثم كيف يقبل هذا وذاك وليس في السورة شيء يتصل بقيامه في عبادته على قدميه أو على أحدهما ، فالشقاء هو الشقاء النفسي الذي تولت السورة من أولها إلى آخرها علاجه .

و « طه » هي كأخواتها ، حرفان من حروف التهجي التي افتتح بها كثير من السور التي عرضت للتنزيل ومصدره وفائدته للناس ، وقد خاطب النبي بعدد غيرها من تلك الحروف ولم يكن الخطاب دليلاً على أن الكلمة نداء له أو أمر بمعناها : « المص كتاب أنزل إليك » . « الر كتاب أنزلناه إليك » هذا هو الحق ، وللروايات أن تجول وتصول في كتب التفسير ، ولكن الله منزل الكتاب حافظه وحارسه .

قصة موسى

وقد قصت السورة من قصة موسى اختياره لتحمل الرسالة ، وأجملتها في التوحيد والعبادة والبعث « وأنا اخترتك ، فاستمع لما يوحى » وذكرت السلاح الذى منحه الله إياه في الدعوة ودربه عليه وهو العصا واليد البيضاء ، وذكرت أمره بالتوجه الى فرعون الذى طغى ، وذكرت أن موسى في سبيل تحمل الرسالة طلب الى ربه أن يقوى قلبه وأن يسهل له أمره وأن يمنحه لسانا بينا ، وأن يجعل له وزيرا صادقا ، وتلك عدة الداعى في دعوته ، وان الله أجاب موسى الى ما طلب ، وذكره بكفالته إياه من عهد المهد الى مراحل الاعداد والتنفيذ : « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا في ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولاً له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى » وهذا ارشاد الى طريق النجاح في الدعوة ، قد سلكه ابراهيم من قبل ، وأمر به محمد من بعد : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . وقد أثار علم موسى بطغيان فرعون وشدته الخوف في نفسه بعدم نجاحه ، فتلقى عليه تلك الكلمة التى تقتلع جبال الخوف الراسخة عروقها في جوف البحار : « لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى » فيمتلئ موسى ايمانا بمعية الله وحضائنه ، ويتلقى من ربه مرة أخرى : « فأتياه فقولاً انا رسول ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا نعذبهم قد جئتاك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » .

الربع الثانى :

(*) وفيه يوجه موسى وهرون الانذار الالهى لفرعون وقومه ، ولم تشأ الحكمة الالهية أن يوجه الأخذ بالعذاب الى شخص فرعون اذا كذب وتولى وانما ربطه بالتكذيب والتولى كيفما كان ، ومن أى انسان كان ، وفيه تنبيه على ما يغضب الله وتلطف بالغ في توجيه الانذار .

(*) الآيات من ٤٨ الى نهاية الآية ٨٢ من سورة طه .

اسئلة واجوبة

وقد سألها فرعون عن ربها صاحب الوحي ، ومصدر الانذار ، وسألها عن القرون الاولى وما تم في شأنها ، اختبارا لعلمها ، وكأنه ظن ان الاحاطة بشئون الماضين من لوازم ادعاء الوحي والرسالة ، وقد أجابه موسى عن السؤال الاول بآثار الربوبية التي تنطق بها الفطر وتشهد بها الكائنات والنعم : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » أعطى كل شيء الوضع والشكل الذي به تتحقق فائدته ، ثم أودع فيه القوة التي توجهه نحو تلك الفائدة . وكان جواب السؤال الثاني ان شئون القرون الاولى ليس علمها من خصائص النبوة والرسالة ، فنحن بشر لا نعلم الا ما علمنا الله ، وانما هو من خصائصه سبحانه وتعالى فان شاء أعلمنا بها وان شاء أمسكها عنا : « علمها عند ربي في كتاب لا يغفل ربي ولا ينسى » .

وجوب النظر في الآيات

ثم يذكر موسى لفرعون بعض الآثار البارزة للقدرة الالهية ، التي يجدر بفرعون ان ينظر اليها وأن يتعرف حقيقتها ومنشأها وانعام الله بها عليه وعلى الناس : « الذي جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لآيات لأولى النهي » تبصرهم بالرب وترشدتهم الى جلاله وعظمته ، وتدفعهم الى الايمان به ، هذا هو الجدير بالنظر فيه .

أشياء لا يفيد السؤال عنها

أما السؤال عن القرون الاولى فما فائدته ، وقد عميت الأبصار عن النعم الحاضرة ، والآثار البارزة ، وفيه ان شأن أولى النهي والعقول الا يتركوا البحث والنظر فيما ينفع ويفيد الى البحث والسؤال عما استأثر الله بعلمه ودخل في سر غيبه ، كحقيقة الشيطان وعلى أى شكل هو ؟ . وكيف يدخل في جسم الانسان ؟ . وكيف يوسوس له ؟ . وعن الجنة : ما مادتها ؟ ما سمعتها ؟ . ما أرضها ؟ ما سماؤها ؟ . وما الى ذلك مما يترك به الانسان

الجاد النافع الى ما لا يضر ولا ينفع . ثم لا يفوت موسى ان يذكر فرعون بالمبدا والموت والبعث ، رجاء ان تهزه تلك الاطوار التي تمر بالانسان فتخفف من كبريائه : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى » .

لجاج وحجاج

وامام روعة الأدلة التي يرشد موسى اليها لا يملك فرعون الا ان ترتعد نفسه ، فلا يجد الا جواب المبهوت الذي يهرف بما لا يكون : « اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى » . ومتى ، واين ، وكيف عرف ان الساحر يقدر على ان يخرج بسحره مثل فرعون وهو يزعم انه الرب الأعلى ؟ اللهم ان هي الا لجلجة الباطل ، وخذلان الافتراء .

بين موسى والسحرة

وينتقل فرعون الى تواعد موسى بسحرة مثله ، ويتفق معه على يوم العرض الذي يجتمع فيه موسى بالسحرة ، ويبذل فرعون أقصى جهده في جمع السحرة ، ويلتقي موسى بهم ، فيقول لهم في انفسهم قولا بليغا ، قايما بواجب الارشاد والتبليغ : « ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحبتكم بعذاب وقد خاب من افتري » ويتركهم موسى بعد نصحتهم يتنازعون ويتشاورون ، واخيرا جمعوا كيدهم وتواصبوا فيما بينهم وقالوا : « ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى » . ثم يقبلون على موسى ويخبرونه بين ان يتقدم او يتقدموا ، فيشير عليهم بالتقدم : « فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى » فيوجس موسى في نفسه خيفة والانسان مهما بلغ من الايمان فانه يرى ان العاقبة بيد علام الغيوب فيطمئنه الله على موقفه : « لا تخف انك انت الأعلى » ويلقى موسى عصاه فتلقف ما صنعوا ، وهنا تخترق الحقيقة قلوب اهل العلم وتضيء لهم الحق في دعوة موسى فلا يملكون سوى ان يخروا سجدا : « آمنا برب هارون وموسى » . فتأخذ فرعون دهشة الحق ، ويتوعد بجلجلة الباطل : « آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي عليكم السحر » فيعتصمون بسلطان الحق ويشرق عليهم نوره ، ولا يعبثون بتهديده ، شأن

العلماء الواثقين بعلمهم « لن نؤثرك على ما جاءنا من البيانات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا » . وستلقى جزاءك ، ولا يفوتهم أن يقرروا على مسمعه الحقيقة المقبلة التي أدركوها بعلمهم . . الفرق بين ما صنعوا وما ظهر على يد موسى : « انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن ياته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »

علم نافع وعلم ضار

وهكذا تكون نتيجة العلم الحق ، أما العلم الذي لا يصل بعاحبه الى كبد الحقيقة ، ولا يرفعه عن مستوى المجرمين الذين ينكرون الحق ، فجدير به أن يكون جهلا وعمى لا علما ونورا . وهكذا اتضح الحق لسحرة فرعون بعلمهم الحق ، واشتد غيظ فرعون وشدد عليهم وعلى المؤمنين الخناق فيوحى الله الى موسى ، انقاذا لقومه ، وابقاء على دينهم باجتياز البحر : « ان أسر بعبادي فاقرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى » . وهكذا يمد الله اوليائه بما يرد كبد الاعداء . ولغرور الضالين طغيان يدفعهم الى الدمار والتهلكة ، ومن ذلك يلقي فرعون بنفسه وجنوده خلف موسى ومن معه « فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » وكذلك تكون القيادة الطاغية والزعامة الضالة نودي بامتها الى مكان سحيق .



قتل الانسان ما اكفره . ينقذ الله بنى اسرائيل على يد موسى ، ويرفعهم من الذل الذي كانوا فيه ، ولكن يعاودهم سوء التربية والفشاة ، ولا تقبل نفوسهم العزة فتمردوا على موسى الذي جاهد في سبيلهم حتى أنجاهم وأعزهم ، والآيات تذكرهم بتلك النعمة ، عليهم يخففون من شدتهم ويثوبون الى رشدهم : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى » ثم ترشد الى سنة الله في العفو والمغفرة مهما تضخمتم الذنوب ، وعظمت الآثام والجرائم ، ترغيبا للعباد في الخير ، وتطهيرا لهم من الشر : « وأنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .

سورة النمل

الربع الأخير :

(*) هذا هو الربع الأخير من سورة النمل ، وسورة النمل من السور المكية التي عالجت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث ، وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية : وهي سورة الشعراء ، وسورة النمل ، وسورة القصص واشتركت ثلاثتها في المنهاج ، بدأت كل منها فنوهت بشأن الكتاب وما تضمنه من ارشاد وهداية ، ثم سلكت مسلك العظة والعبرة عن طريق القصص الذي يوضح سنة الله في معاملة المكذبين الأولين ، وعن طريق لفت الأنظار الى آثار القدرة الباهرة التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ، وعن طريق التحدث عن الأحوال والمشاهد الهولية التي يصيرون اليها أو تصير اليهم يوم البعث والجزاء .

وقد عرضت سورتنا فيما يختص بجانب البعث الى انكار القوم له وسخريتهم به حتى قالوا : « انذا كنا ترابا وآباؤنا اننا لمخرجون . لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » وحتى قالوا « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وفي سبيل الرد عليهم ذكرتهم بعاقبة أسلافهم الذين كذبوا بالبعث : « قل سيروا في الأرض لما نظروا كيف كان عاقبة المجرمين » . وأرشدت الرسول عليه السلام ان ينذرهم بمشاهدة بعض أنواع العذاب الذي يستعجلونه ، وانهم سيرونه قريبا في الدنيا بأيديهم وأيدي المؤمنين . وان أرجاءه انتظارا لايمانهم لمن فضل الله عليهم وهو عالم بما تكنه صدورهم ، ومحيط بكل غائبة ، وانه سيقضي بينهم بحكمه فلا يضيء صدورك يا محمد باعراضهم : « وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم » ثم تشير الآيات الى ما يصيبهم من العذاب الأكبر الذي أعد لهم في الآخرة .

(*) مقدمة الآيات ٨٢ الى آخر سورة النمل .

وفي هذا تذكر بعض العلامات الدالة على قرب وقوعه ، وإن دابة لها من غرابة الشأن ما لها مستخرج لهم من الأرض تنطق بالحق الذي أنكروه . وإن الناس أعرضوا وضلوا عن آيات ربهم ، وقد تكلم الناس كثيرا في شأن هذه الدابة وأسرفوا حتى قيل : أنها ولد ناقة صالح فر إلى حجر فتح له فاه حينما عقر القوم أمه فدخله فهو فيه حتى يخرج علامة من علامات الساعة ، وماذا علينا لو وقفنا في حديثنا عن المغيبيات عند القدر الذي أخبر به القرآن ، ثم تركنا ما وراءه من التفصيل إلى اليوم الذي يأتي فيه تأويله وبيانه ، وليس الخبر متعلقا بعمل مطلوب من العباد ، وإنما هو انذار ووعيد وتهديد .



فلتقف عند حد العبرة ، ولا نخض فيما استأثر الله بعلمه « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » .

ثم تسوق الآيات بعد هذه العلامة ، بعض الأهوال والمشاهد التي يراها الظالمون في هذا اليوم : حشر لأخرهم على أولهم ، وفزع واضطراب يزلزل كل ثابت . ويقطع ما بين أجزاءه من صلوات : « ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعلمون » . « ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين » ومعناه : « صاغرين » . « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء » . وهنا أيضا تكلم الناس عن « الصور » فأخذوا يشرحونه ويصفونه ، وتكلموا عن حامله ، وعن عدد النفخات ، أهى اثنتان ، أم ثلاث ، أم أربع ، وعن أثر كل نفخة في الكون وعن الذين يسلمون من الفزع المقصودين بقوله : « إلا من شاء الله » تكلموا في كل ذلك بما لا يتوقف عليه فهم العبرة ولا معرفة الهدف .

وواضح أن فعلا من الله يصدر عن قدرته النافذة يقض
هذه الحياة . ويخرجها عن نظامها ، ويسلم أهلها الى حياة
ذات نعيم دائم أو عذاب اليم .

* * *

ثم أرشدت الآيات الى ان المكلفين امام شرع الله ودين
محسن فله خير من حسنته ، واما مسمى فعاقبته الخزي و
« من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنوا
جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار » ثم تختتم السور
الوحية البالغة التي ترسم للنبي طريقه الذي يلزمه ، غير
صدره بكفرهم ، وان هدايتهم لا تنفع احدا سواهم ،
الى تعرف نعم الله والمداومة على شكرها بحمده . وان يك
في كفرهم وعنادهم اليه سبحانه وسيظهر الله خزيهم يوم
بأعينهم ، ما كانوا به يستهزئون : « وقل الحمد لله سريّة
فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون » .

سورة القصص

الربع الأول :

(*) سورة القصص ثالثة سور ثلاث نزلت متتالية ، كما وضعت في المصحف متتالية ، الثلاث سور تتفق في منهجها وهدفها كما اتفقت في جو نزولها ، وقد لوحظ أن اللاحقة منها تكمل أو تفصل ما اختزلت السابقة أو أجملت ، ولعل ما ذكرته سورة القصص في قصة موسى وفرعون يتضح في كثير منه أنه تكميم أو بيان لما أجمل في السورتين قبلها .

تسمية السورة

وعلى كل فهذه السورة هي السورة الوحيدة التي انفردت بحديث موسى عن نفسه وعن سبب هجرته من مصر الى مدين ، وهو المذكور بعد تفصيله بقوله تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، فهو قصص موسى ، وهو في مصر مع المصريين ، وليس قصصه مع فرعون وقومه . ولعل هذا القصص الخاص هو الوجه في تسمية السورة « القصص » وقد كانت حياة موسى من يوم أن ولد سلسلة ذات حلقات متصلة من غرائب الأحداث ، تتجلى فيها — أولا وقبل كل شيء — رهبة الطفافة من كل ما يتخيلون ان فيه زمزعة ملكهم ، والقضاء على سلطاتهم الذي يسخرون به الضعفاء ويسومونهم به سوء العذاب .

فرعون مرعوب

فها هو ذا فرعون يعلو في الأرض ، يظلم ويستبد ، ويتخذ من رعيته سبيوفا يضرب بعضها بعضا ، وتلك عادة الطغيان في كل زمان ومكان ، لا يدع الرعية تتماسك وتتحاب ، خوفا من تكتلها

(*) الآيات من أول السورة الى نهاية الآية ٢٨ من سورة القصص .

على ازالة سلطانه والقضاء على غطرسته وقد كان من اثر تلك
الرهبة أن أوحى الى فرعون من بعض شياطينه أن وليدا يولد في
بنى اسرائيل يكون زوال الملك على يديه ، فيطير لب فرعون ويصدر
أوامره الظالمة الغاشمة بذبح ذكور المواليد ، ويبيعت عيسه ،
ويبث عيونه لتعرف المواليد وتنفيذ الأمر فيهم كي يطمئن على عرشه
وسلطانه . ويولد موسى ، وتتلقاه قابلة فرعونية ، فيتولى الله
رعايته بما يرد على فرعون كيدته فيه وطغيانه عليه : ولا يزال
رب موسى يرعى موسى حتى يعده لما يريد من زعزعة الجبروت
واذابة الطغيان ، والنهوض بالمستضعفين الى مصاف الزعماء
والقواد المصلحين والأنبياء المرسلين : « ان فرعون علا في الأرض
وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي
نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا
في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ،
ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وهكذا
سنة الله في الطغاة الظالمين مع الضعفاء العاملين المخلصين ،
رأيناها في فرعون وموسى ورأيناها في محمد وأصحابه ، ورأيناها
في كثير من الأزمنة وكثير من الأمكنة . وحياتنا الحاضرة اكبر شاهد
وأوضح مثال ، فهي سنة مطردة يعامل الله بها كل من حاد عن
طريقه وطفى وبغى وأخذ بالناس عن طرق الهدى والزهاد .

موسى الوليد

ولد موسى ونمى خبره الى فرعون واضطرب فؤاد أمه عليه ،
فألهمها الله وسيلة الحفظ والرعاية ، وطمأنها وبشرها : « وأوحينا
الى أم موسى أن أرضعينه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي
ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » تحمل أمواج
البحر موسى حتى تقف به على باب فرعون وأهله فينشرح لمنظره
صدر زوجه وتوصي بالمحافظة عليه « قرّة عين لى ولك لا تقتلوه ،
عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

من عجائب الأقدار

ومن عجائب الأقدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعون ،
وأغرق في البحر فرعون على يد موسى ومغزى هذا أن الله يعد

للظالم قذيفة من صنع يده ، وانه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعير به فرعون موسى . فكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشه ، وتعاضم فرعون بالأنهار تجرى من تحته فابتلعت البحار ، وفى هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وصدق وعد الله مع أم موسى ، فردده اليها واحتضنته وهو ولدها ، ورعاه الله حتى نبت فى بيت فرعون كريحانة زكية تنبت فى تربة مليئة بالأشواك والأقذار ، فيعمل جهده على ازالتها والقضاء عليها ، ويتعرف بأبناء النبوة وسلالة الأخيار ويربط الايمان بينه وبينهم ويعرفون فيه الملجأ عند الشدائد ، ويستنبصونه فى كربهم فينصرهم ، حتى كان ما كان : « فوكزه موسى ففضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » .

ويتلقى موسى نبأ ائتمار القوم به فيخرج من المدينة خائفا يترقب ملتجئا الى الله أن يهديه سبيل مدين وأن ينقذه من القوم الظالمين .

خبر موسى وابنتى مدين

يصل موسى الى مدين فيجد امرأتين معهما انعام تريدان سقيها ولكن يمنعهما الحياء والضعف عن مزاحمة الساقين فيتقدم اليهما ويسقى لهما . فيذهبان الى أبيهما ويخبرانه خبره ، فيرسل اليه احدهما : « ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » . يطمئن موسى الى مضيفه الشيخ الذى أكرم منزله وأحسن مثواه ، ويرى الشيخ على موسى دلائل النبل والامانة فيعرض عليه مصاهرته اياه فى احدى ابنتيه ، على أن يرعى غنمه ثمانى سنوات او عشرة ، فيقبل موسى ذلك العرض ويتم الاتفاق ويحصل القران : « ذلك بينى وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

الربع الثانى :

(*) وفيه ان موسى عليه السلام وفى للشيخ الكبير بما التزم

(*) الايات من ٢٦ الى نهاية الآية . هـ من سورة القصص .

في رعى الغنم ، ثم ارتحل بزوجه التي عرفها بالاستحياء ، وعرفته بالقوة والأمانة ، وكانت سكنه وشريكته في تلك الرحلة الميمونة التي تلقى فيها رسالة الهدى والصلاح ، رسالة انقاذ المستضعفين من ضغط الطغاة الجبارين .

تكليف موسى بالرسالة

وهنا تذكر الآيات كيف وجه موسى الى مكان المناجاة الذي اختاره الله ليلقى عليه فيه نداء التكليف بالرسالة الى فرعون . يرى موسى نارا فيتوجه اليها ملتصقا دفئا بدنيا أو هاديا بشريا . يرى النور الذي لا يلحقه ظلام ، ويسمع الهداية التي لا يعثرها ضلال ، يسمع نداء ربه : « يا موسى انى أنا الله رب العالمين » ويدربه ربه وهو بين يديه على عدته التي يعتمد عليها في دعوته . يدربه على العصا يلقيها فتهتز كأنها جان ، ويدربه على اليد يدخلها في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء : « فذلك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين » يتلقى موسى أمر ربه ويذكر انه قتل منهم نفسا ويخاف أن يقتلوه ، ويطلب من ربه أن يشهد ازره بأخيه ، ويجيبه الله الى طلبه : « سنشهد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون »

عناد فرعون وقومه

يصل موسى الى فرعون ويبلغه رسالة ربه فيسخر فرعون منه ويأخذه الكبر والجبروت ويهزا بالدعوة : « ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين » ، ويلقى على قومه حجاب التضليل : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » ويشدد طغيانه ، فيهزا حتى بالله رب العالمين : « فأوقدلى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعل اطلع الى اله موسى » .

سنة الله مع أعدائه

استكبر فرعون وجنوده بغير الحق وكانت العاقبة كما صور الله : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهكذا كانت سنة الله مع أعداء الله ، يجعلهم في الدنيا

أئمة يدعون الى النار ثم لا يسلمون منها من كيد الله ومكره ، ويوم القيامة لا ينصرون ، وهكذا سنته بع أوليائه دعاء الحق ، يجعلهم كما وعد أئمة في الهدى ويجعلهم الوارثين : « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . تلك قصة موسى مع فرعون وملئه ، أوحاها بجميع أطوارها الى محمد عليه الصلاة والسلام وفي كل طور منها أبلغ العظات والعبر لقوم يذكرون ، ثم قصها محمد على أهل مكة . وموقفهم منه عليه السلام هو موقف فرعون من موسى ، وخلدها الله في كتابه لتكون العظة أتم والعبرة أشمل ، يطمئن بها في كل زمان دعاء الحق على دعوتهم ، وياخذ منها الضالون المفسدون ما يردهم عن طغيانهم ويبصرهم بسنة الله مع أسلافهم .

انباء أوحى بها الله

يقص الله على محمد قصة موسى . ثم يوجه اليه الخطاب بها يقطع شك النفوس في أنه يبلغ عن نفسه ، فيذكر له أنك تقص عليهم هذا القصص وما كنت مقيما في أهل مدين تتلقى عنهم نبا موسى في سقى الأنعام ولا نبأه في الزواج ، ونبأه في الاجلين . تقص عليهم هذا القصص وما كنت مع موسى اذ ناداه ربه وحمله الرسالة ، ولكنها أحداث وقعت وتطاول عليها الزمن حتى نسي الناس رسالة ربهم وعادوا الى حلف فرعون واستكباره ، فأرسلناك اليهم تجدد لهم عهدنا وتذكرهم بآياتنا وتقص عليهم انباء المكذبين من قبل ، لئلا تكون لهم علينا حجة لئلا يقولوا : « لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين » . فبك أبطلنا حججتهم وقطعنا أعدارهم فقابلوك بما قابل به فرعون موسى ، وكانت قضية العقل تقضى عليهم بالإيمان والتسليم . ولكن توارث الضلال شأن الضالين المضلين ..

والحق لا يسلم من باطل يحاول تزييفه ، واطفاء حرارته في النفوس ، فقابلوا محمدا بما قابل به فرعون موسى وانكروا عليه حجته وقالوا : « لولا أوتى مثل ما أوتى موسى » . فهل آمنوا بما أتى به موسى ؟ . او لم يكفروا به من قبل ألم يقولوا عن موسى وأخيه : « سحران أو ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون » فهو لاء من أولئك .

ومسلك أهل الضلال واحد ، وحجتهم الزائفة واحدة تشابهت قلوبهم فتشابهت اقوالهم . انكر أسلافهم دعوة موسى وأخيه . وأنكروا هم دعوة محمد وهما دعوة واحدة وهديهما واحد فهل لهم ان كانوا طلاب حق وهداية ان يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما ؟ .. اما ان يكذبوا دون ان يقدموا حجة أو يأتوا بخير وهداية ، فهذا ليس منطق العقل ، ولا منطق الحكمة ، وانما هو خداع الهوى وسلطان الضلال : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين » .

الربع الثالث :

استمرار الجحود بعد تتابع الحجج

(*) نوع الله لأهل مكة أساليب الدعوة ، والوان العظة والاعتبار ، نبه عقولهم للنظر في آثار قدرته ولغتهم لتدبر سنته ، وكشف لهم عما أعد من عذاب مقيم ، وخاتمة سيئة للمكذبين المفسدين ، واتبع القول في ذلك كله ببعض ، ووافاهم بحججه وأمثاله منجما ، ليطلعوا كل يوم على حجة فيتدبروها ويعقلوها ، عظة بعد عظة ، وعبرة بعد عبرة . ومع هذا لم يؤمنوا بل ظلوا على الاعراض والتكذيب ، ولو كانوا طلاب حق لكان لهم من توصيل القول ، وتصريف الآيات ما أنار لهم السبيل ، وأوضح أمامهم الطريق ، فلا تبتئس يا محمد بكفرهم واستمرار كيدهم وحسبك في حقية دعوتك ان الذين تلقوا دعوة الله من قبل ، وآمنوا بكتبه السابقة ، فأشرقت قلوبهم بنور الحق ، يدركون أحقيتها وانها تلتقى مع دعوة أخوانك السابقين ، ويؤمنون بها كما آمنوا بما أنزل من قبلك : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين »

ثناء وجزاء

وهنا تعرض الآيات لجزاء هؤلاء الذين سلمت غطرهم ولم تفسدها العصبية الضالة ، كما تعرض لأوصافهم التي استحقوا

(*) الآيات من ٥١ الى نهاية الآية ٧٥ من سورة القصص .

بها ذلك الجزاء العظيم ، فتذكر صبرهم في مواقف الدعوة الى الحق ، وتذكر حلمهم واحسانهم لصدر اساعتهم ، وتذكر سخاءهم وانفاقهم في سبيل الله ، وتذكر ترفعهم بأنفسهم عن مجارة السفهاء واعراضهم عن خطتهم والسير في طريقهم ، والاختلاط بهم : « واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا : لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » . فتلك سنة المؤمنين السابقين ، فاستقم انت ومن آمن معك عليها ، ولا يحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ان ايمانهم ليس مطلوبا منك ، ولا تابعا لرغبتك ، وانما هو تابع لما يعلمه الله في انفسهم من طهر وصفاء ، وبه فقط تتحقق هدايتهم ، وبه يتوجهون الى الايمان : « انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين » . كان القوم يعتذرون عن عدم ايمانهم بالخوف من اقوامهم يفتكون بهم ويقضون عليهم ان هم آمنوا بمحمد ودعوته : « ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » ومعناه انهم يصيرون اتاعا بعد ان كانوا متبوعين ، ويجردون من سلطانهم بعد ان كانوا ذوى سلطان مرهوب ، فترد عليهم الآيات بأن هذه حجة مهلهلة وخيال كاذب ، وهم باطل : قاله الذي مكن لهم من حرم يأمن فيه الخائف ، ويشبع فيه الجائع ، ويجبى اليه الثمرات لا يعجزه ان يحفظهم وان يمكن لهم ضد من يناوئهم ، ولو انهم انصفوا لعرفوا ان استمرارهم على الكفر ورد الحق وانكار سبيل سنة الله لتسليط دعاة الحق عليهم وتمكينهم منهم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ، وكنا نحن الوارثين » .

ثم ترشداهم الآيات الى ان ما هم فيه من جاه ومال وسلطان ماله الى الزوال ، وانه لا يدفع عنهم شيئا من قضاء الله : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » . ثم تضع الآيات أمامهم صورتين متقابلتين ، وتحكمهم في أي الصورتين خير الى عقولهم وضمائرهم ، صورة الذين يلبون دعوة الحق وبه يؤمنون ، وصورة الذين يرغبونه وبه يكفرون : « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » .

ثم تذكرهم بما سيكون يوم القيامة بينهم وبين شركائهم من

محاولة تخلص بعضهم من بعض ، وتبرؤ متبوعيههم من تابعيهم ، وبما سيكون منهم حين يسألون عن موقفهم من الرسل : فتملكهم الحيرة وتلزمهم الحجة : « ربنا هؤلاء الذين اغويننا ، اغويناهم كما غويننا » أى لم يكن لنا سلطان فى غيهم وانما عرضنا عليهم أن يغفوا باختيارهم كما غويننا . « تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون » . « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتكم المرسلين ، فعميت عليهم الانباء يومئذ ، فهم لا يتساءلون » .

النبوة شأن من شأنون الله

وكان القوم يستنكرون أن ينزل الوحي على رجل فقير يتيم من بينهم وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ، فترد عليهم الآيات بأن الانطفاء للنبوة كالخلق ، شأنان من الشأنون الخاصة بالله . فكما لا يخلق الا بمشيئته ، لا يصطفى الا بمشيئته ، فهو وحده العليم باستعداد خلقه وصلاحيته لما يريد : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » .

ثم تعود الآيات وتذكرهم بنعم الله عليهم ، ورحمته بهم فى تنظيم الليل والنهار على وجه يمكنهم من طيب الحياة . وتحاكمهم الى الفطرة فى الاعتراف بأن لا قدرة لأحد سواه فى ذلك التنظيم ، اذ هو جعل الليل أو النهار سمردا : « من اله غير الله يأتىكم بضياء ؟ . . من اله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه ؟ » فان استجابوا للحجة فقد آمنوا والا فقد عرضوا أنفسهم ليوم لا تنفعهم فيه شفاعة الشافعين ، ويخزل عنهم ما كانوا يفترون .

الرابع الرابع :

علاج لنزعات الشر

(*) يعتز الناس فى دنياهم بما لهم من جاه ومال وسلطان ، وكثيرا ما تصرفهم نعم الله عليهم الى البطر . . تدفعهم الى الطغيان ، وتقطع ما بينهم وبين الله من صلات ، فينكرون الحق ، ويتزعمون ..

(*) الآيات من ٧٦ الى آخر سورة القصص :

عصابات الشر والفساد ، وكثيرا ما عالج القرآن هذه النزعة في الانسان : فنبه بقصصه الى عاقبة الطغيان والبطر ، وإلى أن الجاه مهما عظم ، والمال مهما كثر ، والسلطان مهما اتسع ، فانه لا يرد عن صاحبه شيئا من قضاء الله اذ هو استمر على طغيانه وبطره ، وانه لا ينبغي لعاقل أن يغتر ببسمة الدنيا ، فانها كما يقال : خداعة غرارة ، وانه لا نجاة من خداعها الا بالايان والتقوى والعمل الصالح . . .

قارون وامواله

بهذا مضت سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وفي سبيل تقرير هذه السنة يقص الله علينا أمر قارون : كان من قوم موسى ، ولكنه لم يحفظ للقرابة حقها ، بل بغى وتكبر ، واتخذ نعم الله سبيلا لكيد عباد الله . انعم الله عليه بمال تعجز الجماعة القوية عن حمل خزائنه ، أو حمل مفاتيحه ، ونسى حق الله في ذلك المال ، واعتقد طغيانا وكفرا انه من سعيه وكده ، وانه سيق اليه باستحقاق ذاتي ، وأعانه عليه حسن تدبيره ، ونفاذ أمره وسلطانه . .

وقد حاول عقلاء قومه ارشاده ونصحه وتذكيره بأن الدنيا لا يصح الاطمئنان اليها ، وأن أحوالها في تغير وتقلب ، وانه لا عاصم من شرها الا الايمان بالحق ، والعمل الصالح ، وأن سعادة الانسان انما هي في أن يتخذ من يومه لغده ، ومن دنياه لآخريته . قدم له عقلاء قومه ما استطاعوا من نصح وتذكير ، ولكن ران على قلبه ما امتلأ به من ضلال وطغيان فأهمل مواعظهم ، وخرج بطرا في زينته ، فاغتر به ضعاف العقول ، وتمنوا أن ينالوا مكانته . ولكن العقلاء ، الذين يقدرون الدنيا قدرها ، ويدركون منها ما لا يدرك غيرهم ، أخذوا يؤنبونهم على هذا التمني ، ويؤكدون لهم أن وراء هذه المظاهر الفاتنة الفانية ما هو أسمى منها ، وهو معرفة حق الله في نعمه وأن للبغى من العواقب ما يجدر بالعاقل أن يقدره ، وأن يدخله في حسابه ، وقد صدقتهم العواقب فلم ينفع قارون ماله ولا جاهه ولا سلطانه ، وما هي الا دورة فلكية حتى كان قارون ومظاهر دنياه في طي صحائف الماضي : « فحسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من

دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، ويكأنه لا يفلح الكافرون»

حول زينة قارون

وقد ساق المفسرون كلاما كثيرا في وصف زينة قارون ، وفي كيفية خسف الأرض به ، وحسبنا فيها ما تدل عليه كلمة «زينة» بالنسبة لما عهد في مظاهر أرياب الجاه والمال ، وما تدل عليه كلمة « فحسفنا به وبداره الأرض » ، من زوال النعمة وانتزاع الملك والسلطان ، والذلة بعد العزة . ويعجبني قول الإمام الرازي في هذا المقام : « والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة ، وانها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة ، فالأولى طرحها ، والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب » .

وأرجو أن ننهج في تفسير كتاب الله هذا المنهج الدقيق الذي يحفظ علينا وعلى الناس إيماننا بجلال معاني القرآن وقصصه الحق الذي لا ريب فيه ..

قص الله علينا في السورة قصة فرعون ، وكيف كانت عاقبة علوه وفساده ، وقص علينا قصة قارون ، وكيف كانت عاقبة بغيه ، وتكبره ، وكلها سنن مطردة في معاملة الله للمتكبرين المفسدين . ثم ختمت السورة بالارشاد الى أساس الخير والسعادة في الدنيا والآخرة : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » ..

تربية

شأنان لابد من تربية النفوس عليهما حتى تحظى بالاستعادة عند الله : تطهير النفس من ارادة الظلم والافساد في الأرض ، واتقاء ما يغضب الله من اهمال احكامه وشرائعه ، واهمال سننه ونظمه ، وقد نيه القرآن كثيرا على اوصاف المتقين ، الذين ضمن الله لهم عز

الدنيا وسعادة الآخرة ، فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى في النفوس ، وكيف تبدو آثارها في نفع البلاد والعباد .

منزلة الرسول عليه السلام

انتقلت الآيات بعد ذلك الى شأن خاص بالرسول ، فطمأنته على المنزلة الخاصة والدرجة العالية التي أعدها الله له ، بما فرض عليه من تبليغ القرآن وبيان أحكامه ، والتي لا ينالها أحد سواه : « أن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » . ويقدر ما يتعلق أتباع محمد بالقرآن يكون لهم من ذلك المعاد وتلك المنزلة . ثم يلفت نظره الى أن انزال هذا الكتاب اليه وتخصيصه به لم يكن ليتوقعه في نفسه ، وإنما هو من رحمة ربه به ، ومن رحمته بعباده ، فتبسك به يا محمد ، ولا تكونن ظهيرا للكافرين . وادع الى ربك ، ولا تكونن في النفوس ، وكيف تبدو آثارها في نفع البلاد والعباد . هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » .

سورة العنكبوت

الربع الاول :

الناس امام الدعوات الجديدة

(*) من شأن كل دعوة جديدة دينية كانت أم سياسية ، أن تجد لها في الجماعة البشرية من يتقبلها ويؤمن بها ، ويضحى بنفسه وماله في سبيل نشرها وتركيزها واقتناع الناس بها ، وان تجد بازاء من يؤمن بها من ينكرها ويكفر بها ، ويسعى جهده في ظاهره وباطنه في مكافحتها والقضاء عليها . فريقان مؤمن قوى الايمان واضحه ، وكافر شديد الكفر واضحه . فإذا ما امتدت الدعوة ، وظهر سلطانها ، اتصل بأهلها طمعا أو رهبا دون أن يؤمن بها فريق ثالث تزيا بزيهم فيصلى مثلا كما يصلون ، ويصوم كما يصومون مادام في صفوفهم ، وما دام في امن من التكاليف الشاقة والتضحيات النفسية والمالية ، وإذا ترك هذا الصنف ، في تردده بين ايمانه الظاهر وكفره الباطن ، كان معول هدم في جماعة المؤمنين ، وكان أشد فتكا بهم وبدعوتهم من أعدائهم البارزين .

لهذا اقتضت حكمة الحكيم أن يكون له في كل دعوة اصلاحية من أنواع التكاليف ما يمتحن به المرء فيعرف منه الصدق ان كان صادقا ، ويعرف منه الكذب ان كان كاذبا ، وبذلك تظهر صفوف المؤمنين من عناصر التخذيل ، ويعرف خبيثهم من طيبهم ، وقد عنى القرآن كثيرا بلفت الأنظار الى فائدة الابتلاء بالتكاليف الشاقة من صنوف الجهاد ، وأنواع البذل في سبيل الله : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » .

(*) الايات من ١ الى نهاية الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

الابتلاء سنة في الأولين والآخرين

وفي هذا الشأن نزلت سورة العنكبوت ، وأرشدت الى أن الابتلاء سنة في الأولين ، وماضية في الآخرين : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » .

عناية الله بالمؤمنين

وفي شد عزائم الصادقين المخلصين الذين يتقبلون في جد البلايا والمحن ترشدهم الآيات الى أن الباطل ، مهما قويت أنصاره ، وعلا زبده ، مآله الاضمحلال والزوال ، ولا بد أن يقع دعائه تحت سلطان الله القوى القاهر ، الذي لا مفر منه : « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » .

وتشدد الآيات ازهرهم مرة أخرى فترشدهم الى أن الله لم يمتحنهم بالشدائد حبا في تعذيبهم أو لتحصيل كمال ينقصه وانها يمتحنهم بالشدائد تقوية لآيمانهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، وتعظيما لأجرهم عند الله : « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين ، والذين آمنوا و عملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون » ..

حقان محفوظان

وكثيرا ما يصدم الانسان ، في عاطفة ايمانه ، عاطفة أبوة تدعوه الى الكفر ، أو تدعوه الى ترك الجهاد في سبيل الدعوة التي يؤمن بها ، ولربما أضعفت تلك الصدمة صبر المؤمن ، وسولت له ترك ايمانه أو الاخلال بواجبه ، وفي حل هذا الاشكال ترسم السورة طريق الخلاص فتحفظ للأبوة حقها الذي لا يطغى على حق الله ، وهو الاحسان اليها ، وتحفظ لله حقه ، فلا تطاع الأبوة في الاشراك به : « ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » .

من اوصاف المنافقين

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك الى بعض شئون المنافقين ، فتذكر انهم

يضعفون عن تحمل اذى الكفار لهم ، ويجعلونه كعذاب الله مخشياً مرهوباً ، ولا يقدرّون على دفعه ، وبذلك يتزلزل ايمانهم ، وتضعف مقاومتهم . وتذكر أيضاً أنهم لا يظهرون في صفوف المؤمنين الا حين تمام النصر والغلب : « ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم » .

وقد كان من صور تغيير الكافرين بضعاف الايمان أنهم يتكفلون لهم بخطاياهم ، وتحمل تبعات كفرهم ان كان هناك يوم للجزاء والحساب ، وقد عهدنا أن عناصر الفساد تغرى ضعفاء القلوب بالآمال الكاذبة اذا استقاموا معهم وعاونوهم فيما يريدون من شر وفساد ، والسورة ترشد الى هذا النوع من الخداع ، وتظهر الحقيقة جلية ناصعة : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ، أنهم لكاذبون » .

ابتلاء السابقين

ثم تعود الآيات فتُرشد بالأسلوب التاريخي الى أن الابتلاء ليس شأنًا خاصًا بمحمد وأمه ، وإنما هو شأن عام ، تقلب فيه نوح وقومه ، وتقلب فيه ابراهيم وشميعته حتى قيل : « اقتلوه أو حرقوه » فلأنجاه الله كما أنجى المؤمنين قبله . .

ولا يفوت الآيات أن تقرر أسماء المكيين أثناء هذا القصص بالتبكيث والسخرية على ما اتخذوا من دون الله أوثاناً لا يملكون لهم رزقاً ، وتأمرهم بالنظر فيما خلق الله . . وبالسير في الأرض ليعلموا آثار قدرته . . وليؤمنوا بأنه رب النشأتين : الأولى والآخرة ، وأنه على كل شيء قدير : « وما أنتم بمفجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

الربع الثاني :

عاقبة صبر ابراهيم

(*) وفيه بيان عاقبة الصبر الذي اعتصم به ابراهيم في الدعوة

(*) الآيات من ٢٦ الى نهاية الآية ٥ من سورة العنكبوت .

الى الله وفيما وجهه اليه قومه من كيد وايداء ، وقد كان منها انه اكتسب قوة من عشيرته كان لها اثرها الواضح المستمر في الدعوة الى الله ، وهو ابن اخيه لوط ، ومنها ان الله أعزه بالهجرة التي مكنت له في القيام بدعوته ، ومنها ان الله أكرمه بذرية صالحة تنسج على منواله ، وتسير في طريقه وتفتح للناس طريق الهدى والرشاد ، وبذلك خلد ذكره ، وامتلات جميع القلوب بمكانته : « فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب ، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » .

لوط وقومه

وتفسير الآيات في تصوير ابتلاء الله لعباده المؤمنين ، والتثوية بشأن جهادهم وصبرهم على الكيد والأذى ، وما كان لهم من حسن العاقبة فتذكر لوطا وما قاساه في دعوة قومه الى التطهير من فاحشتهم التي شذوا بها عن الفطرة ، وأفسدوا بها خلق الله حتى ضاق صدره ولم يجد ملجأ سوى الاستنصار بربه : « رب انصرني على القوم المفسدين » فسمع الله نداءه ، وبعث اليه بجند الانقاذ ومدد النصر : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا ، وقالوا لا تخف ولا تحزن ، انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين ، انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

عناصر الشر التاريخية

وتفسير الآيات في التذكير بأهل البغى والعناد ، فتذكر مدين وتكذيبهم لشعيب ، وتذكر عادا وثمود وما كان منهم لهود وصالح ، ثم تذكر قارون وفرعون وهامان واستكبارهم في الأرض وثلاثتهم من عناصر الشر التاريخية ، وقد شرحت سورة القصص السابقة علوهم في الأرض ، وبغيهم على عباد الله .

ثم تضع الآيات أصابع المكيين ، ومن يتخذ سبيلهم في محاربة الحق ، على حروف المعاقبة التي حلت بهم ، وطوقتهم بألوان من

عذاب الله : « فكلنا اخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون » .

عظة الحاضر . .

واذا كانت سنة الله في اخذ الظالمين واحدة ، فنحن في عذرا هذا نرى ونسمع عن الرياح الحاصبة تقتلع الأشجار وتنزل بشاهقات العمائر ، وعن الصيحات تخلع القلوب ، وتستلب الأرواح من الأشباح ، وعن البراكين تنفجر وتلتهم نارها القرى والمدن ، وعن الأرض تتفكك أوصالها وتغور طبقاتها ، وتصبح مقبرة لمن عليها ، وعن الفيضانات ، وقد فار تنورها ، وأنت على كل شيء من الحضارات . . كل ذلك نراه ، ويقف الجبارون أمامه حيارى ، ثم لا يلبثون أن يعودوا فيعملوا جهدهم في اختراع المدمرات من نفاثات وذريات بغيا من الانسان على أخيه الانسان . وكان جدير بهم اذا كانوا أرباب دين وإيمان أن يبذلوا جهدهم في وقاية خلق الله من عذاب الله القاهر بالسلم العام ، وإقامة العدل ، والكف عن المظالم . .

أوهن البيوت

وبعد أن تسبح السورة هذا السبح الطويل في سنة الابتلاء ، ومصير المكذبين الذين يفتنون الناس عن الحق ، تتجه الى المكيين ، فتصور لهم ضعف الملجأ الذي اعتصموا به ، وهو الأوثان ، عن أن يدفع عنهم كيد الله وانتقامه وتجعل مثلهم ، في اتخاذهم اياها ، كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتا من تلكم الخيوط الواهية الضعيفة التي تنسجها ، فلا تدفع عنها حرا ولا بردا ، ولا تحفظها من يد تمتد اليها ، ولا ريح يهب عليها ، فكذاك ولاية الأوثان لهؤلاء ، ولاية لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

مثل يأخذ بقلوب المؤمنين ، ويربهم شاسع الفرق بين من يتخذ الجاهل — الذي لا يقدر — وليا من دون الله ، يعتمد عليه ويستنصره

وبين من يتخذ المحيط بكل شيء — القادر على كل شيء — وليسا يعبده ، ولا يعبد سواه : « ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم » « خلق الله السموات والأرض بالحق ، ان في ذلك لآية للمؤمنين » .

ثم نتجه الآيات الى أهل الايمان الحق في شخص رسولهم ، وترسم لهم طريق العصمة من التردى في هاوية هؤلاء الضالين المكذبين ، فتأمر بتلاوة الكتاب ، والانتفاع بهديه وارشاده، وقصصه وأخلاقه ، وأحكامه ودلائله ..

ثم توحى على وجه خاص بالصلاة واقامتها ، فهي المعراج القوى الذى يصعد به المؤمن الى ربه ، وهي العدة التى يجاهد بها المؤمن نفسه وهواه ، وهي النور الذى يرى به عظمة مولاه ، وبه يراقبه فى سره ونجواه : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب ، واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون » .

سورة غافر

الربع الثالث :

(*) هذا هو الربع الثالث من سورة غافر ، وقد بداها الله بجملة من صفاته ، ذات الجلال والجمال ، وكان في مقدمة تلك الصفات صفة المغفرة التي يفتح بها للضالين المكذبين باب الرجوع اليه : « غافر الذنب وقابل التوب » . ولهذا البدء سميت بسورة غافر . وتسمى أيضا بسورة المؤمن ، لأنها انفردت — وهي تذكر بموقف المبطلين من قوم موسى عليه السلام — بذكر نصيحة مؤمن من آل فرعون ، قيضه الله للحق الذي يدعو اليه موسى من بيئة الكفر والعناد ، وأخذ يلقي عليهم مواظله التي من شأنها أن تستل من قلوبهم محاربة الحق ، والاستكبار عن قبوله . حذرهم تنفيذ ما عزموا عليه من قتل موسى ، وأنذرهم عاقبة استمرارهم في الطغيان ، وضرب لهم في ذلك الأمثال بمصائر المكذبين قبلهم . كما خوفهم عذاب الآخرة الذي سينالهم يوم الجزاء الذي لا عاصم فيه من أمر الله ، ودعاهم الى اتباع الحق ، وتلبية الهدى والرشاد ، وانكر عليهم تعلقهم بالدنيا الزائلة ، وبين لهم أن العاقل يجب أن يربط نفسه بالباقي الدائم ، لا بالمتاع الفاني : « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع ، وان الآخرة هي دار القرار » .

وكان آخر نداء وجهه اليهم انكاره عليهم — بعد أن تبين له الحق ودعاهم الى النجاة — أن يدعوهم الى ترك ذلك الحق ، وأن يدخل في باطلهم : « ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة ، وتدعونني الى النار » . ويشرح لهم ذلك بقوله : « تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار » .

وأخيرا ، وبعد أن يبذل في نصيحهم أقصى الجهد البشري ، أعلنهم بكلمة الواثق من عقيدته ، الحريص على خير أمته ، المضحي بنفسه في سبيل الحق الذي يدعو اليه :

(*) الآيات من ٤٦ الى نهاية الآية ٦٥ من سورة غافر .

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد » . وكانت عاقبته ان حفظه الله ورعاه ، وعاقبتهم ان نزل بهم الكيد والبلاء : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرغون سوء العذاب » .

العبارة من القصة

وعبرتنا من هذه القصة أمران : أحدهما أن الحق ، مهما تكتل على أخفائه ورفضه أعوان الباطل ، لا بد أن يقيض الله له من بيئة المبطلين أنفسهم من يؤمن به ، ويفار عليه ، ويضحى بنفسه وراحته في سبيله حتى يظهره الله ..

وهكذا كان حق محمد ، وباطل المشركين ، وهكذا شأن كل دعوة الى الحق أمام المبطلين في كل عصر ، وفي كل زمان .

ثانيهما : ان على من تبين له الحق وآمن به أن يبذل غاية وسعه في دعوة قومه اليه ، حتى اذا أيس منهم وأيقن أن لا فائدة من دعوته اياهم اعتزلهم وما يعبدون من باطل ، وعندئذ يتولى الله أمرهم ، ويوقع بهم شديد العقاب : « فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب » . « فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون » .

ثم تنتقل الآيات بعد ذلك ، وتصور للمبطلين موقف اتباعهم من متبوعيههم وتبرؤ المتبوعين من التابعين ، كما تصور التجاء الجميع الى جنود العذاب : « خزنة جهنم » يلتمسون منهم دعوة الله الى تخفيفه ، فلا يكون الجواب سوى تسجيل الخزي والعذاب عليهم ، وتبكيتهم على انكار الحق بعد أن قامت عليهم حججه ودلائله : « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ . . قالوا : بلى : فادعوا ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال » .

ثم تضمن الآيات لدعاة الحق النصر والتأييد وتأمرهم بالتزام الصبر والتمسك بحبل الله في سبيل الدعوة اليه ، وتؤكد لهم أن معارضة المبطلين لم تكن ناشئة عن برهان ، وإنما هي اثر لكبر ملا قلوبهم ، وستضمحل قوتهم ببركة الاعتصام بالله : « فاصبر

ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار .
ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم ان في صدورهم
الا كبر ما هم بباليغية فاستعذ بالله ، انه هو السميع البصير .

ثم تلفت الآيات الى آثار قدرة الله في الكون ، فتذكر نعمته على
العباد بالليل الذي فيه يسكنون ، وبالنهار الذي فيه ينتشرون ،
وبالأرض التي عليها يقرون ، ومنها يرزقون ، وبالسماوات التي بمائها
ينتفعون ، وبنجومها يهتدون ، ثم تبرز لهم نتيجة كل ذلك التي هي
دعوة الحق : « ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحي
لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين » .

الربع الرابع

(*) هذا هو الربع الرابع والآخر من سورة غافر ، وقد ختم
الربع السابق بجملة من صفات الجلال والعظمة ، تدعو الى افراد
الله سبحانه بالعبادة والتقديس ، والاتجاه اليه وحده بالحمد والثناء
على ربوبيته العامة للعالم ، وتحول بين الانسان المدرك لآثار هذه
الربوبية ، وبين الخضوع لغيره سبحانه ، وتحمله على تقرير الحق
في الربوبية والعبادة في نفسه ، وفي عمله ، وفي دعوته : « قل اني
نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البيئات من ربي ،
وأمرت ان اسلم لرب العالمين » .

الله الخالق

ثم تعود الآيات الى تركيز العقيدة عن طريق لفت الانظار الى
جملة من الأدلة النفسية التي يدركها الانسان في كيفية خلقه وفي
الاطوار التي مرت به : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم
من عاققة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكرهوا شيوفا ومنكم
من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون » .

(*) الآيات من ٦٦ الى آخر سورة غافر .

شأنه كن فيكون

هذه الأطوار ترشد بأوضح بيان الى أن الذى تولاهما ، ودرج بالانسان فيها : « هو الذى يحيى ويميت » والى أنه صاحب الأمر النافذ الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء « فإذا قضى أمرا فأنما يقول له كن فيكون » وهذا شأنه لا يتغير : نراه فى كتلة العالم ، ثم نراه فى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الانسان ، وهو شأنه فى الحال ، وشأنه فى المال ، يوجد « بكن » ويميت « بكن » . « وكن فيكون » شأنه الذاتى لا يتخلف ولا يزول . وإذا كان شأنه « كن فيكون » فالى أى جانب يذهب هؤلاء الذين ينكرون حقه الذى يفار عليه ، والذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ؟ . . ان حجج الحق قد طرقتهم ، وأخذت عليهم جميع المسالك ، ولم تجعل لهم سوى مسلك واحد سيعلمونه حينما توضع الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، ثم يقال لهم : ان ذلكم الذى أنتم فيه « بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون ، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين » .

وبعد أن تصور الآيات مصير المجادلين بالباطل ، هذا التصوير الذى ينزع من الصدور قلوبها ، تعود فتأمر أهل الحق بالصبر والثبات : « فاصبر ان وعد الله حق » وتؤكد لهم أن مرد المعاندين الى الله سواء عجل لهم العذاب أم أخره : « فاما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » .

ثم تلفت الانظار الى أن شأن دعاة الحق مع المعارضين هو شأن المرسلين السابقين : أوذوا فى سبيل الله وصبروا : « وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » .

ثم تأخذ فى التذكير بنعم الله فيما خلق لهم من أنعام ينتفعون بالبانها ونسلها . وفيما هيا لهم من سفن تحملهم وتحمل أمتعتهم الى آفاق غير آفاقهم ، ثم توقظ فيهم ضمير الحق : « ويريك آياته فإى آيات الله تنكرون » .

ثم تذكر الآيات بسنة الله مع أسلافهم الذين أنكروا الحق ، وكانوا أكثر منهم واشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا عليه

من قوة ، وما كانوا فيه من كثرة ، بل حاق بهم ماكانوا به يستهزئون :
« فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ،
فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده
وخسر هنالك الكافرون » .

واذا كانت عوامل الفساد ، وعناصر الشر ، ومظاهر الطغيان ،
وسنة الله التي يأخذ بها الطغاة واحدة في كل العصور ، فليحذر
هؤلاء الطغاة ، الذين يسخرون ما أنعم الله به عليهم من علم ، وقوة ،
ومخترعات في استعباد خلق الله واستعمار أوطانهم ، فليحذروا
غضب الله للحق ، وغيرته على عباده ، فتلك سنته ، ولن تجد
لسنته تبديلا .

سورة فصلت

المربع الأول :

(*) سورة فصلت ، وتعرف بسورة السجدة ، هي السورة الثانية من سور سبع بدئت بحرفي « حم » وعرفت لذلك في القرآن الكريم باسم الحواميم ، وقد نزلت مرتبة متتالية ، ووضعت في المصحف كما نزلت ، وهي كلها تؤكد ان القرآن تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، من العزة والحكمة والعلم والرحمة : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » . « تنزيل من الرحمن الرحيم » . « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .

القرآن وحى الله الى رسوله

ومعنى هذا ان القرآن ليس — كما يزعم المبطلون — من سحر الكهان ، ولا من أساطير الأولين ، ولا من مفتريات محمد ، ولا من تعليم بشر ، وانما هو وحى من الله أنزله على رسوله ، يقدر به أصول دينه من الايمان بوحدايته ، والايمان بالوحى والرسالة ، والايمان بالبعث والجزاء ، وقد لفتت جميعها في سبيل ذلك الى آثار الله ونعمه في الأنفس والآفاق الدالة على قدرته النافذة ، وعلمه المحيط ، وحكمته البالغة ، كما انذرت ورغبت . انذرت بالعذاب الذى حل بالأمم التى كذبت رسلها ، وبالعذاب الذى أعد لهم يوم البعث والجزاء ، ورغبت بالحياة الطيبة في الدنيا ، وبالنعيم الدائم في الآخرة ، وكثيرا ما تضمنت تحذيل المكذبين ، وصورت اعراضهم ، وجنابتهم على عدم استعدادهم لسماع الحق والحكمة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتهذبة لنفسه ، ونفوس أصحابه المجاهدين .

(*) الآيات من ١ الى نهاية الآية ٢٤ من سورة فصلت .

عناد

وها هي ذى سورة فصلت ، قد وضحت كثيرا من مواقفهم أمام الحق الذى يدعوهم اليه ، وكان من أبرز ما فصلته تصوير اعراضهم عنه ، وشدة نفورهم منه بقولهم : « قلوبنا فى اكفة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل انفسا عاملون » . يصفون انفسهم بأن قلوبهم فى أغطية محكمة فلا ينفذ اليها شمعاع من الدعوة ، وبأن آذانهم فيها وقر وثقل ، فهي لا تحمل الى قلوبهم صوتا من الحق ، وبأن بينهم وبين الداعى — محمد عليه السلام — حجابا مانعا من التفاهم وتبادل الراى . والمعنى فى ذلك كله انهم طمسوا استعدادهم ، وطمسوا على انفسهم سبل الحق . وتصور اعراضهم بهذا النحو يطابق تماما تصويره بقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة » . وان اختلف القصد والمهدف ، فالقصد فى آية الختم بانهم بأهوائهم اعرضوا عن الحق ، وزين لهم الشيطان ذلك الاعراض حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . والقصد فى آية الاكفة ، انهم يحقرون شأن الدعوة ، ويعلنون انها ليست مما يستحق أن تفتح له القلوب أو تسمع له الأذان ، أو ترفع بينهم وبين صاحبها الحوائل .

أوامر الله لنبيه

أمام هذا التصوير ، الذى يصورون به اعراضهم عن الدعوة ، يأمر الله نبيه أن يقرر لهم أولا مهمته ، وأنه ليس الا بشرا يوحى اليه ، فيبشروهم أن آمنوا ، وينذرهم أن اعرضوا ، وليس عليه شيء من تبعة اعراضهم وتكذيبهم : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » .

وتأمره ثانيا : أن يقرر لهم أن اعراضهم عن دعوة الحق ليس الا كفرا بما شهدت بوحدانيته وقدرته ظواهر الكون وأطواره فى الأرض وما أودع فيها من جبال واقوات ، وفى السماء وما نظمت عليه من كواكب ومصابيح : « قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » . فان هم استعملوا عقولهم ، وآمنوا بما تنطق به هذه الظواهر فقد افلحوا وسعدوا ، وان هم اعرضوا : « فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

وتأخذ الآيات في بيان ما كان لهؤلاء من قوة واستكبار في الأرض، ومع ذلك لم تغن عنهم قوتهم ولا استكبارهم ، بل أخذهم الله بالعذاب الهون : « ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

وتأمره ثالثا : — بعد هذه المثلث الخالية — أن ينذرهم بما يصيرون اليه يوم القيامة ، يوم يشهد عليهم سماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . يوم ينكرون على جوارحهم — التي استخدموها في الشر والفساد — أن تشهد عليهم بما أفسدوا ، فتقرر لهم الجوارح أن الله ، الذي أنطق كل شيء بوجدانيته ، قد أنطقها بجرائمهم ، وأنهم كانوا بحالة من يظن أن الله تخفى عليه شئونه : « ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أراداكم فأنصبتكم من الخاسرين » .

وهكذا تكون نهايتهم ، اجزعوا واستغاثوا ، أم صبروا في ظل من رجاء العفو والمغفرة ؟ . « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين » .

الربع الثاني :

أخوان السوء

(*) صور الربع السابق اعراض المشركين عن الدعوة . وبين محيرهم يوم القيامة وما يلحقهم من الخزي والخسران . وفي هذا الربع ترشدهم الآيات الى أن هذا المصير السيئ لم يكن أثرا لطبعهم على الضلال ، ولا اكراها لهم من الله عليه ، وإنما هو أثر لتأثيرهم بأخوان السوء ، الذين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من الأهواء والشهوات ، وعبرتنا في ذلك أن الشر كثيرا ما يصيب الإنسان من وقوعه تحت تأثير البيئة الفاسدة المحيطة به . فعلى العقلاء أن أرادوا حياة طيبة أن يتخيروا الأصدقاء ، وأن يطهروا مجتمعهم من عناصر الشر ، وبذور الفتن ، حتى لا يكون لها سلطان على قلوبهم .

(*) الآيات من ٢٥ الى نهاية الآية ٤٦ من سورة فصلت .

وكما صور الربع الأول اعراض المشركين عن الدعوة في انفسهم بقولهم : « قلوبنا في اكثة » ، صور هذا الربع طريقته في محاولة صرف الناس عنها : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . يحذرونهم عن الاستماع اليه ، والانصات له ، مخافة أن تصل الى قلوبهم حكمه السامية ، ويرسمون لهم أسلوب ذلك بما يخفى عليهم فضله : « والغوا فيه » : أطلقوا عليه السنتكم ، أشيعوا السخط عليه ، انشروا عنه الأباطيل . . وهذا شأن عرفه المضللون طريقا لاخفاء الحق في كل زمان يغمسونه بالأراجيف والمفتريات ، ويتتبعون أهله بالمقاطعة والتهريج أينما حلوا ، وأينما ارتحلوا . والله يتوعد المرجفين الذين يعملون على اخفاء الحق بالعذاب الشديد ، وسيكشف للتابعين افساد المتبوعين لهم : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

المؤمنون في رعاية ربهم

ثم تشهد الآيات أزر المؤمنين وتؤكد لهم أنهم — بايمانهم واخلاصهم في الدعوة ، واستقامتهم على حدودها — في حماية الله ورعايته ، يقوى قلوبهم ويتردد عنهم بواعث الخوف والحزن ، ويمنحهم كل ما يطمئنهم ، ويبشرهم بالفوز والفلاح : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ثم ترشدهم الى أنهم بدعوتهم الى الله في منزلة لا يوجد في حكم الله وقضائه أسمى منها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . كما ترشدهم الى ما يحفظ عليهم تلك المنزلة من تحلية النفس بالصبر والاحتمال ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، وتطهيرها من نزغات الشيطان التي يزل بها المؤمن عن مقتضى الايمان وتمنعه منزلة السمو بالدعوة الى الله : « واما ينزغئك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم » .

بعض دلائل الوجدانية

ثم تعود الآيات فتلفت الأنظار الى بعض دلائل الوجدانية في علوى

العالم وسفليه ، وان كل ما في الكون خاضع لقدرته وسلطانه ، فلا يصح السجود لغيره مهما عظم : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن » وترشد الى أن العدول عن مقتضى هذه الأدلة انحراف عن الحق ، والحاد فى آيات الله ، وتتوعد هؤلاء الملحدون باطلاع الله على سرائرهم ، والعوامل التى دفعتهم الى هذا الإلحاد : « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتى آمنا يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » .

تسليية

ثم تنتقل الآيات الى تهوين الأمر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى سبيل ذلك ترشده الى أن موقف قومه منه هو موقف الأمم الماضية من اخوانه السابقين ، وما عليه الا أن يصبر كما صبروا : « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك أن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » فلا تسمع لمقترحاتهم ، ولا تهتم بكيدهم ، فهم قوم لا يثبتون على حال ، ولا يرضيهم الا الشهوات والأهواء ، ولقد أنزلنا عليهم قرآنا عربيا بلسانهم ، فيه التفصيل والبيان ، والحجة والبرهان ، فأعرضوا عنه وقالوا فى آذاننا وقر : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمية ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

ثم تختتم الآيات بتقرير مبدأ الحكمة والعدالة فى المؤاخذه بالأعمال صالحها وسيئها ، وان نفسا لا تتحمل وزر أخرى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » .

الربع الثالث :

(*) ومن أساليب القرآن فى الدعوة التهديد والانذار بأهوال الساعة وشدة العذاب فى الآخرة ، وقد جاء ذلك فى عبارات مختلفة ، وعلى ألوان وأنحاء متعددة ، تصف الآيات مقدمات الساعة تارة ،

(*) الآيات من ٤٧ الى آخر السورة .

وتصف الحشر تارة أخرى ، وتتحدث عن العذاب الثالثة ، وعن احوال المكذبين مع شركائهم أو مع الحق رابعة ، وهكذا الى آخر ما نراه في القرآن الكريم ، ومما جاء في ذلك من سورتنا « وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » . « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون » . « فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعجبوا فما هم من المعتبين » . « آمن يلقى في النار خير أم من يأتي . آئنا يوم القيامة ؟ » .

وكان القوم يقابلون الحديث عن الساعة ، وعن ذاب الآخرة ، تارة بالانكار والتعجب من الأخبار به ويقولون : « ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، « من يحيى العظام وهي رميم » . وتارة بما يفيد انهم شاكون متحيرين : « ما ندرى ما الساعة ، ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » . وكثيرا ما كانوا يسألون عن وقتها ، ويستعجلون عذابها ، تهكما واستهزاء ، وكان القرآن في كل هذه المواقف يجيبهم بالحجة الداحضة التي لا تدع مجالا للانكار ولا للشك ، وكان — في سؤالهم عن الوقت — يرد عليهم بأن علمه مما استأثر الله به ، ولا يطلع عليه أحد من خلقه ، ومن ذلك ما جاء في هذا الربع : « اليه يرد علم الساعة » ، والعبارة واضحة في أن علم الساعة لا يعلمه أحد سواه . وقد ضمت الآية إليه بعض الأحداث الكونية التي تأخذ حكمه ، وهم بأنفسهم يعترفون بأنه لا يعلمها أحد سواه : « وما تخرج من ثمرات من أكمامها (أوعيتها) وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه » . وقد جاء ذلك المعنى في كثير من الآيات : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » . « قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » . « يسألونك عن الساعة ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربي » .

الحكمة في اخفاء الساعة

والحكمة في اخفاء الساعة هي الحكمة في اخفاء الآجال ، هي الحكمة في اخفاء الأحداث والنوازل ، فان الانسان لو علم بها لخارت قواه ، وانسد أمامه باب الأمل ، وحيل بينه وبين العمل ، وصار في حالة تشبه القهر والألجاء . وبعد أن اوضحت لهم الآيات شأن الساعة ، اخذت بهم الى التذكير بما ينفعهم ، فذكرت لهم يوم

ينادون : أين الشركاء الذين كانوا يتخذونهم أولياء من دون الله ، وما يجيبون به عن هذا السؤال ، يتبرعون منهم ، ويسجلون على أنفسهم أن أحدا منهم لم يشهد لهؤلاء بالعبودية ، ولا بالولاية : « وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص » ، وهذا نزع من الحيرة والتردد ، يلزمهم في الآخرة ، كما كان يلزمهم في الدنيا . .

الايمان مبعث الشكر والصبر

ومن هنا تذكر الآيات ان الانسان الذى لم يعتصم بالايمان مبعث الشكر على النعماء ، ومبعث الصبر على الضراء ، تتردد مواقفه في الخير والشر والنعمة والنقمة بين الفرح والبطر ، والهلع والجزع ، بين الالتجاء الى ربه في وقت الشدة ، ونسيانه وقت الرخاء ، بين الرضا عند الاكرام والانعام ، واليأس والقنوط عند التقدير والابتلاء ، بين دعاء ربه واستغاثته ، والاعراض عنه صلحا وكبرا ، وفي تلك الأحوال النفسية ، التي تحللها البشرية الحيوانية ، تقول سورتنا : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربي ان لى عنده للحسنى » . « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . وكثيرا ما أكد القرآن هذه النفسية التي يحملها القلب الذي لم يعتصم بالايمان بالله : « فلما نجاهم اذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » . « ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني ، انه لفرح غفور » .

أما العلاج فهو ما جاء في قوله تعالى : « الا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . وفي قوله : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » .

ثم تختتم السورة بأن انكارهم للحق قبل النظر والتفكير — وهو على الأقل يحتمل أن يكون من عند الله — ليس في نظر العقلاء الا

ضلالا وفسادا ليس بعدهما من ضلال ولا فساد : « أرايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو في شقاق بعيد ؟ » .

وبأن الأدلة على حقية القرآن ، وأنه من عند الله ، لا تقف عند هذا الحد فيما تجلى لهم من أسرار الكون وخصائصه ، وعجائب الله وتصاريفه ، بل ستتضح ، وسيرونها فترة بعد فترة ، وطورا بعد طور ، كلما تقدمت مدارك الانسان وخاض غمار الكون فعرّف خواصه ، وسنن الله فيه ، في الآفاق والأنفس : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، صنع ربك الشهيد على كل شيء وهم في مرية من لقائه ، انه بكل شيء محيط .

سورة الشورى

الربع الأول :

(*) هذه هي السورة الثالثة من السور السبع ، التي عرفت في القرآن الكريم باسم الحواميم ، وهي تشارك زميلاتها في الهدف والمنهاج ، فهي تؤكد أن القرآن ما هو إلا تنزيل من الله الجامع لصفات الجلال والجمال ، والذي خضعت له الكائنات « الله العزيز الحكيم » ، « وهو العلي العظيم » وأنه ليس إلا وحيا أوحى به الله إلى رسوله ، لينذر الأتوام الذين فسدت فطرهم ، واتخذوا من دون الله أولياء. يعبدونهم من دونه ، وهو الولي الذي لا ولي سواه : « وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » . .

وأتشددت السورة مع هذا كله إلى أن وحى الله إلى عباده حقيقة ثابتة ، أخذت حظها من الوجود بالنسبة لمحمد ، وبالنسبة لأخوانه السابقين ، فليس الوحي شأنًا خاصًا به ، ولا هو بدعا من الرسل : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » « وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتنذر أم القري ومن حولها » .

الوحي روح

ثم تصف الوحي بأنه روح يحيى القلوب الميتة ، ويهdy إلى صراط مستقيم ، وأنه فضل من الله على محمد ، وأن حالة محمد قاطعة في أن القرآن ليس من عنده وإنما هو من عند الله : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإناك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

ثم تقرر السورة أن الوحي من لوازم حكمة الله ، ومتناول قدرته التي ظهرت آثارها في الخلق والرزق : « فاطر السموات والأرض » « له مقاليد السموات والأرض » .

(*) الآيات من ١ إلى آخر الآية ٢٦ من سورة الشورى .

وحدة دين الله

ثم تبرز السورة حقيقة ضل فيها الناس بغيا وعدوانا ، فذهب غريق الى انكارها ، وغريق الى الايمان بها لبعض الرسل دون بعض . تلك الحقيقة هي أن الدين الذي أوحى الله به الى محمد هو الدين الذي أوحى به الى نوح ، والى ابراهيم وموسى وعيسى ، ووصاهم باقامته ودعوة الناس اليه ، وعدم التفرق فيه ، وقامت فيه حجة كل رسول على قومه ، ولكن الناس كبر عليهم ، حسدا وحسدا ، أن يؤمنوا بتلك الحقيقة المتحدة ، فأكروها ، أو فرقوها ، وزعموا أن الأديان تتعدد بتعدد الرسل ، أن لكل دين أصولا واتباعا ، وأخذوا باسم الدين يتحاربون ويتسافكون ، والدين منهم برىء ، والله من ورائهم محيط ، فدين الله واحد ، وانكاره من أحد الأنبياء انكار له من جميعهم . .

وقد عرض القرآن كثيرا في مكيه ومدنيه لتقرير الوحدة الدينية ، وقرر الايمان بكل الرسل وبكل الكتب ، وجاءت في سورتنا « الشورى » واضحة جلية : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه » .

رسم منهاج الدعوة

ثم تتجه السورة بعد تقرير هذه الحقيقة الى الرسول عليه السلام ، واضع اللبنة الأخيرة من هذا البناء الالهي ، المكمل لشرائع الله ، على حسب استعداد خلق الله . تتجه اليه عليه الصلاة والسلام ، فترسم له منهاجا للدعوة غاية في القوة ، منهاجا يزيد المؤمنين ايمانا على ايمان ، ويزيد المعاندين المغرقين رجسا على رجس ، منهاجا يتكون من عشر فقرات كانت عدته في الهجرة ، وعدته في الدعوة ، وعدته في الوصول الى الغاية : « فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير » .

انتصار الحق

ثم تطمئن السورة بعد ذلك دعاء الحق ، الذين يلتزمون هذا المنهاج ، بأن معارضة الجاحدين لتلك الحقيقة ، المشوهين لها — بعد أن أخذت الى القلوب الحية سبيلها — معارضة ضائعة فاشلة: « والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له ، حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » .

فالحق متى أخذ مكانا ما ، سرت روحه ، وانتشر نوره ، وسار بقوته حتى يعمل عمله في النفوس دون حرب ولا نضال وهكذا أنتشر الاسلام عن طريق السياحة ، وعن طريق التجارة ، وعن طريق الخبر ، دون حرب ولا نضال ، ولا يزال يغزو القلوب ، وتتفتح له الأفئدة دون اكراه أو الجاء ..

ثم أخذت الآيات في تبكيتهن على انكار البعث ، واتخاذ غير الله أولياء مع ظهور الآيات والدلائل ، وتفتح لهم باب الرجاء في العفو والمغفرة إذا هم أقبلوا عليه ، وخلعوا أنفسهم مما هم فيه ، وآمنوا بما أنزل الله : « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » ..

الربع الثاني :

المؤمنون لا تفتنهم الدنيا

(*) جاء في الربع السابق ، ان الله يجيب حاجة الذين آمنوا ويزيدهم من فضله وان للكافرين عذابا شديدا ، ومع ذلك فقد كان الكافرون في بسطة من الرزق وسعة من العيش ، والمؤمنون على عكس ذلك ، وقد يكون هذا هو المشاهد في جل الأزمان ان لم يكن في كلها ..

وفي هذا الربع تكشف الآيات عن شأن في الإنسان ، يرجع هذا الشأن الى انه اذا كثر ماله وجاهه شغل به عن مقومات نفسه

(*) الآيات من ٢٧ الى آخر السورة .

وروحه ، وكثيرا ما يندفع الى البطر والطغيان ، ويتعرض بـ
عاقبة الطغاة من الحرمان المطلق ، والعذاب الاليم ، فـ
الحكمة الوقوف بالمؤمن — فيها يجر الى الطغيان — عند حد
والاعتدال ، وهو فيما يقوم بالحاجة ، ويحقق لـ كمال الذي
الى الطغيان .

حكمة في بسط الرزق وقبضه

ومن هنا نرى أن المؤمنين ، في الأعم الأغلب ، أقل من غـ
متعة الحياة الدنيا وزينتها ، رحمة بهم وحرصا عليهم و
الذين جحدت قلوبهم ، واستولت الدنيا على نفوسهم :
أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم
من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسرر
يتكئون ، وزخرفا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا
عند ربك للمتقين .

بهذا طمان الله المؤمنين ، قرر انه لو بسط الرزق لهم ، :
لغيرهم ، لملوا الى الشهوات وانحرفوا عن الطريق المسـ
وهو لذلك يمد اليهم يده بالقدر الذي يعلم انه يقوم بحاجتهم
ولا يطغيهم ، وليس ذلك عجزا عن أن يمنحهم كما يمنح غـ
ولا بخلا عليهم بما لم يخل به على غيرهم فهو القادر على
لغير حد ، وهو الذي بيده أسباب الرزق وهو الرؤوف
بالمؤمنين ، فهو الذي ينزل الغيث ، وهو الذي خلق السمـ
والأرض وسخرها للإنسان ، وبث فيهما من كل دابة ، وهم
وغفهم الى صنع السفن وأجرائها في البحار ، وكل ذلك لـ
متاع الحياة الدنيا ، لا يحب أن يقف عنده للمؤمنين . وإنما
يجبه لهم هو المتاع الباقي الذي لا ينفد ، والذي لا يحصى
الا من جمع خلال الخير ، ولم يربط قلبه بالمتاع الزائل ، بل
همه الايمان بربه ، والتوكل عليه ، وتطهير باطنه وظاهره بـ
والفواحش ، وانقياده النفسى لمولاه ، وأداء حقه بالصلاة الخـ
وحق أخوانه الفقراء بالزكاة المطهرة . ثم عرف لنفسه
المؤمنين ، ولم يخضع لبغى ولا عدوان ، وإنما انتصر لنفسه
اسراف ولا طغيان : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » . « إنما
على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق » .

أجملت الآيات بهذا صفات المرشحين عند الله ، وهي كلها صفات تقصل بتقوية الجانب المادى عن طريق القوة فى الجانب الروحى ، والذى يجدر التنبيه اليه ان الله ذكر بين تلك الصفات مبدأ « الشورى » . وأشار الى انه شأن المؤمنين : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » .

مكانة الشورى فى الاسلام

وضعه بين اقامة الصلاة والانفاق من الرزق فى سبيل الله ، وسميت السورة بسورة « الشورى » . وكان فى هذا وذاك ابلغ دلالة على مكانة الشورى فى شريعة القرآن ، وحسبها انها عنصر من عناصر الشخصية اليمانية لحقة ، نظمت فى عقد حياته طهارة القلب بالايمان والتوكل ، وطهارة الجوارح من الاثم والفواحش ، ومراقبة الله باقامة الصلاة والانفاق فى سبيله ، والانتصار على البغى والعدوان ..

وبعنصر الشورى قضى الاسلام على عدو الانسانية الفاضلة ، وهو الاستبداد بالرأى واحتكار التشريع والتصريف والادارة ، وسلب اهل الراى والكفايات حق ابداء رأيهم ، وآثار كفاياتهم . والقرآن لا يريد من الشورى — حين يضعها هذا الوضع — هذه الصورة الهزيلة التى يتواضع عليها أرباب البغى والاحتكار ، ويتخذونها ستارا للطغيان ، وسلب الحقوق ، وانما يريد لها حقيقة نقية بريمة مما يكثر صفوها ، ويفقد خيرها ..

وبعد ان تعرض الآيات شيئا من خلال المجادلين فى آيات الله على النحو الذى عهد كثيرا فى القرآن عامة ، وفى هذه السور السبع خاصة ، توجه خطاب الدعوة والتحذير الى الناس جميعا : « استجيبوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » وتقرر للنبي صلى الله عليه وسلم ما به يهدأ روعه ، ويطمئن قلبه ، تقرر له مهمته ، وانه ليس عليه شيء من تبعة كفر الكافرين ، واعراض المعرضين . « فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » .

ثم تؤكد له اخيرا ان الله قد جعل له القرآن نورا يهدى به الى صراط مستقيم . « صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الا الى الله تصير الامور » .

سورة الملك

سورة الملك هي أول سورة من سور الجزء التاسع والعشرين من القرآن الكريم ، والجزء كله من القسم المكي الذي نزل في أول أطوار الدعوة تقريرا لأصولها الثلاثة : عقيدة التوحيد ، وعقيدة الرسالة المحمدية ، وعقيدة البعث والجزاء .

والله ذو الفضل العظيم

في القرآن الكريم سورتان افتتحهما الله بتمجيده وتعظيمه ، وعبر عن ذلك بكلمة « تبارك » الدالة على الاختصاص بمعاني السمو المطلق في الذات والصفات وبمعاني الكثرة والزيادة في الفضل والاحسان ، ولفضل الله على عباده مظهران :

هذا الكون الذي خلقه وأبدعه وأودع فيه من الأسرار والمنافع ما تقف العقول دون اكتناحه والاحاطة به .

وهذا الكتاب المتلو الذي ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، يوجه به العقل البشري الى معرفة الحق في الوجود ، وإلى خوض غمار الكون والتنقيب عن أسرارهِ ومنافعه .

فهما كتابان :

كتاب صامت ينظر فيه الانسان فيعرف ويؤمن وينتفع . .

وكتاب متلو يقرؤه ويتدبره فينبهه الى ما في كتاب الكون من آيات وعجائب ومستودعات هي للانسان مسخرات .

وبهذين الكتابين ، الصامت والمتلو ، تجلت آثار ربوبيته للعالم ، مادية حسية ، وروحية عقلية ، وقد جاءت أول كلمة في الكتاب المتلو « الحمد لله رب العالمين » تعبيرا صادقا عن هذه الحقيقة .

وبهذين الكتابين كمل انعام الله على الانسان ، وعظم فضله واتسع احسانه ، وبهما هينء له أن يصل الى كماله المادى عن طريق الانتفاع بما سخر له في كتاب الكون ، وإلى كماله الروحي عن طريق ما أرشد اليه كتاب الوحي في العقيدة والسلوك .

وقد انزل - في لفت الأنظار الى الكتاب المتلو ، وتفسير أنه
 الفاضل بين الحق والباطل - سورة الفرقان بكلمة التمجيد
 والتعظيم « ببارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين
 نذيرا » . وانزل - في لفت الأنظار الى الكتاب الكونى مظهر الربوبية
 المادية - سورة الملك بتلك الكلمة نفسها « تبارك الذى بيده الملك
 وهو على كل شيء قدير » . ثم ساقى السورة جملة من مظاهر
 سلطانه وقدرته وتفرد به بالملك والتدبير فى الانسان ، وفيما يحيط
 به من عالم علوى وسفلى ، فذكرت ان الموت والحياة يتواردان
 على الانسان ليظهر بهما اتجاهه ويعرف سلوكه ، وهل هو من
 الشاكرين لنعمة الحياة ، المقدرين لرهبة الموت ، أو هو من
 الكافرين بنعمة الحياة ، اللاهين عن عاقبة الموت « ليلوكم ايكم
 احسن عملا » وذكرت فى العالم العلوى ، انه خلق سبع سموات هى
 مدارات النجوم السيارة التى كانت معروفة للعالم اذ ذاك ، يعلو
 بعضها بعضا ، هى غاية فى الاحكام والاتقان ، لا يرى فيها شيء
 من الخلل مما تكرر النظر اليها ، وتردد البحث فيها ، كيف وهى
 خائصة لناموس الهى ثابت ، لا تشذ ذرة فيها عن سلطانه الا
 اذا شاء واضعه ومهسكه . .

نظام محكم

تم ارشدت الى ما فى هذا النظام من وجوه المصالح التى
 تعود على العباد بالنفع العام ، فهى زينة بمصابيحها ، تنمتع
 النفس بجمالها ، وهى منار يهتدى به الانسان فى ظلمات البر
 والبحر ، وهى قذائف حق يرمى بها الشياطين ، الذين يعملون
 جهدهم على اخراج الناس من نور الايمان الى ظلمة الكفر « الذى
 خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .
 « ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ،
 واعندنا لهم عذاب السعير » .

ثم تصف السورة هذه النار التى أعدت للمفسدين بجملة
 أوصاف : تدل على شدتها ، وتغيظها منهم وحقدتها عليهم ، كما
 تدل على تأنيب خزنتها لهم ، وتهكمهم بهم ، وعلى اعتراهم
 أنفسهم بذنوبهم ، واهمال عقولهم ، وزيادة فى فجيعتهم ترشد
 السورة بازاء ذلك الى فضل الله على المؤمنين ، واكرامه اياهم ،

واقرا في ذلك : « اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تقوو . . »
الى آخر الآيات . فتذكر من مظاهر سلطانه ونعمته في العالم
السفلى تهيئة الارض للسير والزراعة ، والتقلب في جميع ارجائها ،
تنذرهم بالقدرة على تغيير تلك المعالم الأرضية بالخسف والزلازل ،
وبارسال الرياح التى تقذفهم بالأحجار ، فتكدر عليهم صفو
الحياة ..



ثم تلفت نظرهم الى آية فذة فيما يرون من الطير ، وهو يحلق
فى الجو باسطا أجنحته ، ثم يقبضها وليس لها من حافظ سوى
قدرة الله المنبئة عن رحمته . « مايمسكنها الا الرحمن » . ثم ينكر
عليهم ، أن نخطر فى نفوسهم بعد تلك الدلائل الواضحة ، أن لهم
من دون الله من ينقذهم أو يرزقهم : « أمن هذا الذى يرزقكم ان
أمسك رزقه ؟ .. » ثم يحاكمهم الى العقل والضمير : « أفمن يمشى
مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ .. »

نعم تستوجب الشكر

ثم بعد أن تمتن عليهم بنعمة الخلق ونعمة السمع والبصر
والأفئدة ، تلك النعم التى كفروا بها وطمسوها على أنفسهم ، فلم
يدركوا بها حقا ، ولم يستعملوها فى أهدافها ، تختم السورة بذكر
المبدأ والمعاد ، ذلكم المعاد الذى يستبعدونه ويستتهزون به كلما
ذكر لهم ، ويقولون : « متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ؟ .. »
وتلقن النبى صلى الله عليه وسلم حجته عليهم : « قل انما العلم
عند الله ، وانما أنا نذير مبين » فلا تسألوا عن وقته فانه لا علم
لى به ، وليس علمه من مهمتى ، وانه واقع بكم لا محالة سترونه
بأعينكم : « فلما رأوه زلفة (قريبا) سيئت وجوه الذين كفروا
وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » ..

وأخيرا تقرر الا طريق للنجاة سوى الايمان بالله والتوكل عليه ،
فهو صاحب المنع والعطاء : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ،
فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرايتم ان أصبح ماؤكم
(مادة حياسم) غورا (غائرا) فمن يأتيكم بماء معين ؟ .. »

سورة القلم

(*) كلما كان الناس غرقى في الشهوات والاهواء ، مسلمين أنفسهم للأوهام والأباطيل كانت دعوة الحق في نظرهم هي دعوة الباطل ، ودعوة الخير هي دعوة الشر ، ودعوة الجنون . ومن هنا كان أول ما قوبل به النبي صلى الله عليه وسلم حينما دعا قومه الى توحيد الخالق ، ونبذ ما هم عليه من الفسوق وعبادة الأصنام : « انك لمجنون » والجنون عند ارباب الشهوات هو التزام جادة الحق والخضوع لواضح البرهان . والعقل عندهم هو مسيرتهم فيما نشئوا عليه وورثوه من الاهواء والخرافات .

وقد نزلت سورة القلم في فجر الوحي ، تكشف الغطاء عن أعينهم . وتبصرهم بحقيقة محمد وما يدعوهم اليه ، فلفتت الأنظار الى أن الذي اجتباها ربه وكرمه وحباه بنعمة الحق والذكاء والفطنة ، ثم بنعمة النبوة والرسالة ، ثم بعظم الأجر على القيام بمهمته ، ثم كمله بالخلق الذي به يشهدون وله يعرفون ، محال أن يكون على ما يصفون .

ثم لم تشأ أن ترسل تلك الحجة المقنعة بنفسها أرسالا ، بل أبرزتها في إطار من القسم بأساس دعوته وهو العلم القاضي على جهالة النفوس وطغيانها ، وذكرته بأهم أدواته من القلم والكتاية وبذلك رجعت به الى أول ما أوحى الله به اليه : « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . ثم طمأننت الرسول بأنه سيرى بعينه ، ويرون هم أيضا بأعينهم أي الفريقين قد زل عقله وحاد عن طريق الحكمة ، ووقع في ضلال الجنون والفتنة ، وبذلك كله تبدأ السورة : « ن . والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .

ثم تعود السورة وتؤكد للنبي في آخرها ان اتهامهم إياه بالجنون لم يكن الا اثرا آثار حقدهم عليه حينما سمعوا منه تلك الدعوة

سورة القلم »

التي ستزلزل سلطاتهم وتقضى على عزتهم التي تخيلوها ، وقد سبق هذا المعنى في أسلوب يصور شدة حنقهم عليه : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون » . ثم تنبه الى حقيقة القرآن وما يدعو اليه بما يدل على ان حقيقته غاية في الوضوح والظهور ، وانه راسخ في النفوس والفطر ، وما الدعوة الا تذكير وايقاظ : « وما هو الا ذكر للعالمين » . وبذلك تكافل آخر السورة مع اولها في رد تلك الفرية واقتلاع جذورها بالواقع الصحيح .

تحذير

وتتجه السورة فيما بين ذلك الى تحذيره صلى الله عليه وسلم من الميل اليهم واطاعتهم فيما يريدونه عليه . كانوا يساومونه بالمال والسلطان ان هو ترك دعوته ، فحذرتهم اطاعتهم على وجه عام ، ثم نفرتهم من اطاعتهم بخلاف سيئة عرف بها بعض زعمائهم ، وتاباها طبيعته النقية الطاهرة : « فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف ، مهين ، همار ، مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، غتل ، بعد ذلك زعيم » . ثم تنبه الآيات الى ان سبب كفرهم هو طغيانهم بالمال والبنين ، واعتمادهم عليها ، واغترارهم بها في عزتهم ، ثم تؤكد سوء عاقبتهم . وان الله سيثب بهم ، ويفضح أمرهم ، ويلصق بهم علامة الذل والصفار بعلو سلطان الحق ، وادالة سلطانهم : « سنسمه على الخرطوم » .

ابتلاء بالمال والبنين

وتبين لهم ان الأموال والبنين لم تكن الا اختبارا يتبين منه صلاح النفوس وفسادها ، وفي سبيل ذلك تذكر لهم قصة أصحاب البستان « الجنة » الذين ضنوا بحق الفقراء فيها ، قالوا نحن به احق واولى ، واتفقوا على جنيها في وقت مبكر غير الوقت الذي كان يعرفه الفقراء : « ولا يستثنون » .

وبعد ان بيتوا النية على ذلك . وذهبوا الى جنتهم ، وجدوها قد احترقت وسقطت ثمارها ، فوقعوا في حيرة حتى ظنوا انهم ضلوا طريقها ثم تبين لهم الأمر ، وانها هي ولكن قد طاف عليها طائف من

ربك وهم ناثرون ، فوقعوا في اللوم وأدركوا انهم بنيتهم كانوا ظالمين : « فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين » . فعادوا الى ربهم ورجوا أن يغفر لهم ، وأن يبذلهم خيرا من جنتهم : « انا الى ربنا راغبون » . ثم تذييل القصصة بأن سنة الله في هؤلاء المستكبرين ، وفي كل أرباب النعم هي سنته في أصحاب الجنة : ان تداركوا خطأهم غفر الله لهم ، وان استمروا على طغيانهم فهذا جزاؤهم في الدنيا : « ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون » .

زعم باطل

ومن عادة المفتونين بأموالهم زعمهم ان لأنفسهم مكانة عند الله أعظم من مكانة الفقراء الذين يهرعون الى استجابة الدعوة فتأخذ السورة في تبكيثهم على هذا الزعم ، وتبين لهم انه زعم ليس لهم فيه مستند ، فلا الكتب نصت عليه ، ولا العقل يقضى به ولم يأخذوا به عند الله حكا ولا عهدا ، واذن فليس لهم من دونه أنصار يحفظونهم من أمره ، يوم يشتد الكرب ، ويكشف عن ساق «ويدعون» الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون . ثم تخفف السورة وحالة تكذيبهم على النبي ، تطلب منه أن يفوض أمرهم اليه سبحانه ونرشده الى ان الانعام عليهم لم يكن لمكانتهم عنده ، وانما كان املاء واستدراجا ، ثم تأمره بالصبر على كيدهم وتحذره الانفعسا النفسى مخافة أن يقع فيما وقع فيه أخوه يونس ، حينما غضب من قومه وتركهم فابتلاه الله بابتلاع الحوت اياه وفي ذلك تقول السورة :

« افجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » .
« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون »
« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مظلوم » .

عظة

اما بعد :

فجدير بأرباب الشهوات والاهواء ، الحاقدين على الحق وأهله

أن يطهروا قلوبهم من بواعث الحقد ومكايدة الحق ، احتفاظا
بإنسانيتهم وحرصا على مزاياهم التي كرمهم الله بها .

وجدير بأرباب الأموال الذين يضمنون بحق الفقراء فيها وقد أنعم
الله بها عليهم — أن يتأملوا قصة أصحاب الجنة فيخشوا غيره الله
على عباده الفقراء . .

وجدير بأرباب الدعوة الى الحق ، الذين يعملون على الخير
والصلاح ، ألا يقتربوا من المبطلين أرباب الفساد والخلق السيء
الذى يمنعون به الخير ويفسدون به ما بين الناس من روابط
المحبة والأخاء ، عليهم أن ينشئوا أبناءهم على خلال الخير
والفضيلة . وجدير بهم أن يثربوا في كل ذلك بالصبر والإلتجاء
الى الله حتى يسعدوا أنفسهم ومجتمعهم بدعوة الخير والفضيلة ،
ويركزوا الحق الذي رضي الله لعباده وبينه في كتبه ، وكلف
رسله بتبليغه والدعوة اليه . ونسأل الله التوفيق والهداية . .

سورة الحاقة

(*) وجهت سورة الملك انظار القوم الى بعض ما في الكون من دلائل الوجدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة ، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التي وجهها اليه القوم حقدا وغيظا ، وهي تهمة الجنون ، وحذرت ان يلين لهم ، او ان يسارع اليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الأمثال في عاقبة الاغترار بالأموال والبنين ، ولم يفتها ان تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء .

ثم تجيء سورة الحاقة فتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها ، وانها بلغت في عظم الشأن ان يقف الانسان امام انبائها واهوالها مبهوتا. متسائلا ، بل بلغت مبلغا يتسامى عن الادراك والاحاطة « الحاقة » ما هي ؟ وما ادراك ما هي ؟ استفهام يملا النفس روعة ورعبا ، ويقف بها على شاطئ بحر متلاطم الأمواج ، لا يدرك البصر اطرافه ، فيقف حائرا مضطربا لا يملك سوى ان يقول ما هذا ؟ ما هذا ؟

معنى الحاقة

وكلمة « الحاقة » كلمات القارعة والواقعة ، والطامة ، والصاخبة ، اعلام بالغلبة على القيامة ، ولكل منها دلالة على معنى من معانيها ، واثر من آثارها . فهي حاقة في ذاتها ، وهي حاقة لانبائها ، وهي بمقوماتها وأحداثها تقرر القلوب وتصك الأسماع ، وهي التي بعد هذا كله كان انكار الأمم السابقة لها سببا في فسادهم وطغيانهم ، وفي التنكيل بهم على وجه لا تزال آثاره وأخباره تنبئ بما أصابهم من الهلاك والدمار ، فهذه ثمود ، وتلك عاد ، وهذا فرعون ومن قبله من الطغاة ، وهذه « المؤتفكات » القرى التي

(*) سورة الحاقة .

أؤتفكت وانقلبت على أهلها بفعلتهم الشنعاء : قري قوم لوط . هؤلاء جميعا أنكروها ولم يعملوا على حسابها، فاندفعوا في طغيانهم واثمهم ، فأتى على الكل ما طوى صفحتهم من الوجود ، وجعلهم أثرا من بعد عين « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » .

وقد ذكرت السورة بالطوفان الذى أخذ قوم نوح ، مصرحة بجانب النعمة فيه على العرب وهى حمل أصولهم في السفينة « أنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية » . ومعنى هذا انه كان جديرا بالعرب — وهم أبناء الذين سلموا من الطوفان — أن يذكروا تلك النعمة ، ويدعوا العناد والتكذيب : « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية » .

انذار

وبعد أن فحمت السورة من شأن الساعة ما فحمت ، وقدمت للقوم النذر التاريخية التى أصابت المكذبين بها، أخذت تصور أحداثها، من مقدماتها الى نهايتها ، فصورت بالنفخ في الصور انحلال القواميس التى تمسك العالم علويه وسفليه « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » . ثم تصور عظمة السلطان الالهى بمثل ما يعهده الناس في سلطان القادرين الأقوياء : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وحسبنا أن نؤمن بما تدل عليه العبارة من عظم السلطان على حسب ما يعهده الناس في دنياهم . أما كيف تقف الملائكة على الأرجاء ، أو كيف يحمل العرش ، أو من هؤلاء الثمانية ؟ أو ما حكمة هذا العدد ؟ فهذا كله مما لا ينبغي أن نخوض في حقيقته ، انها هو روعة القضاء الالهى ، والمحكمة القاهرة . .

جزاء المؤمن

ثم تشير الآيات الى المعرض على دار القضاء التى تحدد فيها المسئوليات : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . ثم تشير الى الحكم ، فيصدر لفريق بالنجاسة ، وعلى آخر بالادانة ، وان

الأولين يسلمون صك البراءة بأسلوب التكريم : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، أنى ظننت أنى ملاق حسابيه » . وأن الآخرين يسلمون صك الادانة — على العكس — بالاهانة ، معترفين بعملهم الكاذب وغرورهم الفاسد : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه » . وبعد أن يصدر الحكم يجيء دور التنفيذ فيكون المؤمنون « فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية »

جزاء المكذب

أما المكذب المجرم فيقال للزبانية : « خذوه فغلسوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » . ثم تبرز الآيات حيثية الحكم على هذا المجرم : « انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » . وحسب المسكين أن يكون اهمال امره وعدم الحض على اطعامه عديلاً فى كتاب الله وقضائه للكفر بالله .

وبعد أن يتم تصوير مراحل القضاء الالهى فى الفصل بين المؤمنين والمكذبين تنتقل السورة الى ما يقرر الحق فى النفوس ، وتبرز قسم الله — الذى ليس فى حاجة الى القسم — بالعالم غائبه وشاهده ، على ان القرآن قول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، ولا بقول كاهن . وانما هو تنزيل من رب العالمين .

ثم تعبر السورة عن موقف الألوهية بالنسبة لمحمد على فرض انه كما يزعمون قد افترى القرآن على ربه : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . والمعنى لقصينا عليه من ساعته ، وقطعنا منه عرق الحياة ثم لا يوجد من يدفع عنه ، أو يمنعنا من تنفيذه ارادتنا فيه ، وموقفنا منه — وقد افترى علينا — هو موقفنا منكم وقد كذبتموه فى رسالته .

أثر القرآن في النفوس

ثم تختتم السورة ببيان أثر القرآن في النفوس ، وأنه تذكرة للقلوب الصافية المستعدة للخير ، وحسرة على الأخرى التي أفسدت استعدادها بالشهوات والأهواء : « وأنه لتذكرة للمتقين » . « وأنه لحسرة على الكافرين » . ثم تؤكد أن القرآن هو الحق الثابت الذي لا شبهة فيه ، وتأمّر الرسول بالتزامه وإهمال المكذابين ، معتصما في ذلك بتنزيه الله الذي أحاطه بعنايته ، والذي لا يرجى ولا يخاف سواه : « وأنه لحق اليقين » . فسبح باسم ربك العظيم .

سورة المعارج

(*) كان من أساليب الدعوة الى التوحيد والبعث الانذار المتكرر للمكذابين بعذاب يوم القيامة ، وكثيرا ما طوقهم القرآن — على نحو ما رأينا في السورة السابقة « الحاقة ما الحاقة » — بأنباء العذاب الأخرى والمحاكمة أمام القضاء الالهي .

عذاب ليس له دافع

وكان القوم يقابلون هذا الانذار بالانكار والاستهزاء والسخرية، ولقد وصل بهم الأمر في ذلك الى حد أن استعجلوا العذاب ، والى حد أن قال قائلهم « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

وقد جاءت سورة المعارج ، بعد أن حققت سورة الحاقة انباء البعث والقيامة ، تكشف عن ضعف عقلية القوم ، إذ كانوا يطلبون وقوع العذاب الذي به يوعدون ، بدل أن يطلبوا التوفيق الى الايمان فيكون ايمانهم وقاية لهم من ذلك العذاب ، وتؤكد لهم أن العذاب واقع بهم ليس من شك ، وليس لهم من ينجيهم منه ، وليس له من دافع يدفعه عنهم ، فمشيئة الله نافذة فيهم ، وعذابه لاحق بهم ، وترشدهم الى أن طول الأمد ، الذي لم يظهر فيه شيء منه ، إنما هو طول نسبي في انظارهم فقط . أما في واقعه ، وفي تدبير الله فهو يوم واحد ، هو يوم الدنيا ، ومرحلة واحدة ، هي مرحلة التدبير لشئون الدنيا ، ذلكم التدبير الذي اقتضت حكمة الله أن يكون بواسطة جند يترددون بينه وبين خلقه على معارج ومصاعد في يوم كان مقداره في أيامكم خمسين ألف سنة . وما هي الا أن تمضي مرحلة التدبير ، ومرحلة التكليف ، وتأتي مرحلة الحساب وتحديد المسئوليات ، وأذن فلا تكثر يا محمد بموقفهم منك واصبر صبراً جميلاً . .

(*) سورة المعارج *

العروج

وقد عبرت الآية عن مرحلة التدبير بعروج الملائكة والروح الى الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، وما علينا الا أن نؤمن بما تدل عليه الآية من قصر أمد الدنيا في نظام الله ، وليس علينا أن نكلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقة شيء استأثر الله بعلمه .

ويلتقى هذا التصوير مع مثله في آية أخرى « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

وفي آية ثالثة « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » .

فهم واجتهاد

والقصد من كل ذلك ان وقع العذاب الذي يسألونه يعقّب ذلك اليوم الذي يتردد فيه الملائكة بين الخالق والخلّاق ، وهو البقية من يوم النشأة الأولى . وقد جاء على لسان الرسول « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار الى السبابة والوسطى » واختلاف العدد يدل على مجرد الكثرة والمبالغة في وصف الدنيا بالطول بالنسبة اليهم لا بالنسبة لنظام الله وأيامه ، وقد أفصحت السورة عن هذا المعنى « انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا » .

من علامات القيامة

ثم أخذت السورة تذكر علامات القيامة في السماء وانها ستكون كالليل « مائع الزيت » ، وفي الجبال وانها ستكون كالعن المنفوش « الحسوف المنفوش » : وفي الانسان وانه سيطلبه فيه كل امرئ بنفسه : « ولا يسأل حميم حميما » . ثم ترقى في وصف هول ذلك اليهم بأن المجرم يتمنى فيه لو يفتدى من عذابه بأقرب الناس اليه واحبهم عنده ، ثم تقطع عليه أمل الفداء ، وتصور لحوق العذاب به بطمع النار فيه : « انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتزلى وجمع فأوعى » .

ثم تشير الآيات الى الانسان في انكار الحق ومحبتة الجمع والادخار اذا لم يعتصم بهداية الله ، وان منشأ ذلك فيه غلبة الهوى عليه « ان الانسان خلق هلوفا اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا » .

ثم تذكر ان علاج ذلك الشأن انما هو القيام بحق الله وحق الفقير السائل والمحروم ، وفي التصديق بيوم الدين ، وفي الخوف من عذاب الله ، وفي حفظ الاعراض والامانات ، وفي الشهادات والمحافظة على الصلوات ، وانه بتلك خلال الفاضلة تتحقق عناصر الشخصية الناجية التي يكون أهلها : « في جنات مكرمون » ولو ان هؤلاء سلكوا هذا السبيل لكان مصيرهم الى النعيم ، ولكنهم رفضوا أن يطهروا قلوبهم وأخذوا يسخرن بالحق ، ويفترون على الله ، يزعمون لأنفسهم استحقاق الجنة ، بل أحقيتهم بها : « أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا » ..

ثم تختم السورة بتوعدهم ، وتوجيه النبي الى عدم الاكتراث بهم : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » . وعندئذ يكشف لهم عن ساق ، وانهم كانوا على باطل ، ثم تصف خروجهم من القبور في ذلك اليوم ، مسرعين ملبين دعوة البعث ، مقهورين غير مختارين ، وتذكرهم في حالتهم هذه بحالتهم في دنياهم حينما كانوا يخرجون من بيوتهم متسابقين الى اصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله : « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » .

سورة نوح

(*) قوبل النبي صلى الله عليه وسلم منذ أن دعا إلى توحيد الله وعقيدة البعث بموجة شديدة من الإنكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون من أساليب الدعوة التذكير بما أصاب الأمم الخالية جزاء الإنكار والتكذيب .

وفي هذه السورة يقص الله على نبيه موقف أول رسول بعثه للبشر فدعاهم إلى مثل دعوته ، وقوبل منهم بمثل ما قوبل به ، تثبيتا له على دعوته ، وتسليية له فيما يصيبه ، وتهديدا لقومه — أن استمروا على العناد والاستهزاء — بعاقبة أسلافهم حينما استمروا على الكفر والعناد .

وللعرب رابطة خاصة بنوح عليه السلام ، وهي رابطة البنوة ، ففي التذكير بقصته تهديد لهم بجانب ما كان فيها من النعمة التي أخذت المكذبين ، وامتنان عليهم بما كان فيها من النعمة التي أنقذ بها نوح ، ومن آمن معه ، ومنه كان آباؤهم الذين بواسطتهم ظهرُوا في الوجود وتكونوا شعوبا وقبائل وانتشروا في الأرض ، وإلى هذا تشير آية الحاقة : « لمسا طغى الماء حملناكم في الجارية » .

وقد تكررت في القرآن بأساليب مختلفة بين الطول والقصر تسليية الرسول وتذكير القوم بقصة نوح عليه السلام . وعنيت هذه السورة المسماة باسمه بأمور :

دعوة نوح وأصولها

أولها : بيان دعوة نوح ، وإنها تركز على أصول ثلاثة : عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام .

(*) سورة نوح .

تقوى الله باجتنباب المعاصى التى تقسد الأخلاق وتفكك الروابط بين الجماعات .

اطاعة الداعى فيما يأمر به عن ربه .

وهذه الأسس الثلاثة هى دعوة كل رسول جاء بعده ، وهى مصاعد الحياة الطيبة تعلو الأمم اذا تمسكت بها ، وتسقط اذا انحرفت عنها : « أنا أرسلنا نوحا الى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب اليم ، قال يا قوم انى لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون » .

فوائد الدعوة

ثانيا : بيان فوائد هذه الدعوة التى تعود عليهم بخيرى الدنيا والآخرة اذا قبلوها وآمنوا بها . والآيات ترشد الى أنهم يفتنعون بها فى نواح ثلاث :

ناحية الروح ، تمحو عنها ما اقترفته من الذنوب « يغفر لكم من ذنوبكم » .

ناحية الأجل ، فيها يستوفون أجلهم الطبيعى دون أن يعاجلهم العذاب المقدر عليهم اذا استمروا فى الكفر والمعاصى « ويؤخركم الى أجل مسمى » .

ناحية الرزق ، بفتح أبوابه وتوجيههم نحو العمل فى الحياة ، والانتفاع بما سخر لهم فيها : « يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

سبل الدعوة

ثالثها : أن نوحا سلك معهم فى الدعوة السبل الطبيعية لكل دعوة جديدة أسر وأعلن ، وجمع بين الاسرار والاعلان ، ومع كل هذا : « جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا » .

دعاهم ببيان ما فى الدعوة من الخير الروحى والمادى ، ثم دعاهم بلفت الأنظار الى آيات الله ونعمه فى أنفسهم وفى الخلق كله :

« ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا . ألم خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعا سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها اخراجا . والله جعل لكم الأرض بسطا تسلكوا منه فجاجا » .

لفت انظارهم بعد ان هز عواطفهم الى برهان العقل خلق انفسهم والاطوار التي مرت بهم ، ونبه الى خلق ما من عالم علوى وسفلى على وجه يكفل لهم خير الدنيى الحياء .

ومن دقائق الاشارات العلمية فى نظام الكون ان الآيات لشمس فى السموات وهذا يتفق تماما مع ما عرف اخبر لشمس مركز النظام الشمسى ، وأن الكواكب تحف به . لقمر له مركز فيها ومعدود منها : « وجعل القمر فيهن نور الشمس سراجا » .

عناد واعراض

رابعها : انه على الرغم من هذه الطرق المختلفة ، وتلك الواضحة ، نبذ قوم نوح دعوته ، واشتد انكارهم لها ، نوح اعراضهم ، مرة بوصف فى انفسهم ، سدوا آذانهم بثيابهم ، ومرة بالشكوى الى الله الذى أرسله بهذه الاشارات الى سبب اعراضهم : وهو اتباع الرؤساء المفتونين والأولاد : « قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم ا وولده الا خسارا » .

ثم كشف عن دعوة الباطل التى خدعهم بها هؤلاء المـ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ونسرا » .

وهنا أبرز أسماء الآلهة التى عبدوها من دون الله ، ه لتماثيل كواكب اعتقدوا انها منبع الخير ، أو أسماء لقوم أطلقوها على تماثيلهم التى اتخذوها معبودات وآلهة من دو ولعل هذه الفترة كانت مبدأ زلة العقل البشرى فى اتخاذ

وعبادتها ، ومنه انحدر تقديس البشر من الأنبياء والأولياء بما
يقديس به خالق البشر . ومن هنا حظر الاسلام صنع التماثيل
واقامتها بفكرة التقديس والعبادة ، وبذلك اجتث جذور الوثنية ،
ونعى على المستغيثين والمستعينين بغير الله .

عاقبة الكاذبين

خامسها : بيان العاقبة التي صار اليها القوم جزاء اعراضهم
عن سماع الحق « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا
لهم من دون الله أنصارا » . وقد عرضت سورة هود الى حادثة
الطوفان التي أغرقت القوم : « واستوت على الجودي وقيل
بعدا للقوم الظالمين » . ثم أشارت الآيات الى حكمة الله في اخذ
الجبارين المستكبرين وهي ترجع الى ارادة تطهير العالم من جرائم
الشر والفساد : « انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجر
كفار » .

وازاء هذه العاقبة السيئة التي تقطع على الجبارين حياتهم بشر
الآيات الى العاقبة الطيبة لعباده المؤمنين « رب اغفر لي ولوالدي
ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين
الا تبارا » .

أما بعد :

فتلك قصة نوح كما وردت في ستورة نوح ، قصتها الله على كفار
مكة ، وعلى جميع الناس ، وهي مثال حي ناطق بسنة الصراع
بين الحق والباطل في كل زمان ومكان ، وناطق بأن فساد العقلية
البشرية ليس من اصل الطبيعة وانما هو من خداع المستكبرين
المكبرين ، وناطق بأن الحق مهما طال ركوده لابد أن يعلو صوته
وينتشر في العالم ضوؤه ، ويعم الكون خيره ..

وهكذا ستكون عاقبتك يا محمد وعاقبة كل من اهتدى بهديك،
وسار على سنتك في الدعوة الى الحق والى الصراط المستقيم .

سورة الجن

(*) فطر الناس على ان في العالم خلقا آخر غير الانسان ، يعرفونه بآثاره ولا يرون أشباحه ، ولا يعرفون حقيقته ، وقد صرحت بذلك جميع الكتب السماوية بعبارات واضحة لا تحتمل التأويل ، كما صرحت بالعناوين الخاصة بهذا الخلق ، فذكرت الملائكة ، وذكرت أعمالهم ومهامهم ، ووصفتهم بالطاعة الدائمة ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . .

الجن والانس

وذكرى الجن وجعلتهم نوعا مقابلا للانسان يندرجان تحت عنوان « الثقلين » ، وخاطبتهم وتحدثت عنهم ، كما خاطبت الانسان وتحدثت عنه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا . لا تنفذون الا بسلطان قبأى آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تقتصران » . « ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها » . « ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضهم ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا . قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله » .

تكليف ومسئولية

وهكذا نجد القرآن قد اشرك الانس مع الجن في المسؤولية والمؤاخذه والمصير ، ووضعهما في اطار واحد ، وتحدث عنهما بحديث واحد ، وسرع في وجوههم جميعا حجة واحدة : « يا معشر

(*) سورة الجن ١٥

الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ ؟ . . قالوا : شهدنا على انفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين .

حقائق ثابتة

واذن فليس في وجود الجن شك ، وليس في تحميلهم شرائع الله ورسالاته شك ، وليس في مسئولياتهم ومواخذتهم بالتقصير شك ، وليس في استعدادهم لاستماع القرآن وتلقيه وفهمه وتدبره والتأثر به شك ، فكل هذا حق لا ريب فيه ، ومن لم يؤمن به فليس بمؤمن بالقرآن ولا برسالة السماء وان محاولة تأويل شيء منه تحريف للكلم عن مواضعه ، وسلخ للالفاظ عن معانيها ، وضيق عطن من المولعين بانكار ما لا يدركه الحس . .

استجابة الجن للاسلام

هذا وقد قص الله علينا في موضعين من كتابه استماع نفر من الجن للقرآن ، وان هذا الاستماع كان له اثره البالغ في نفوسهم ، صحح عقائدهم في الله ، وطهر نفوسهم من الأوهام والخرافات المتعلقة بهم ، وكملهم بالمعارف الصحيحة ، واندفعوا به الى اذار قومهم فأرشدوهم الى الحق في العقيدة ، والى الحق في الرسالة ، والى الحق في علاقتهم بالانس ، والى الحق في معرفتهم الغيب ، أجمل كل ذلك في قوله تعالى من سورة الاحقاف : « واذا صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا اجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين . »

وهذه سورة الجن تفصل ما أجملته سورة الاحقاف من مبادئ الخير والفضيلة التى أدركوها من القرآن ، وتصحيح على لسانهم الأخطاء التى كانوا عليها وأدركوا الحق فيها مما سمعوا من القرآن .

الجن يتحدثون

ولنصغ اليهم وهم يلقنون عقيدة التوحيد وتنزيه الرب عن اتخاذ صاحبة والولد : « ولن نشرك بربنا احدا وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

ولنصغ اليهم وهم يضيفون فساد عقائدهم الى سفهائهم الذين يكذبون على الله ..

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم عمن يعتقدون من الانس ان للجن سلطانا عليهم فيعوذون برجال منهم وضعوا في نفوسهم ان لهم سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من اذاهم ، وقد درج الناس على هذا الوهم ، واستغل به كهنتهم ضعاف العقول منهم باسم العلاج و « التحويلة » وساعدهم على ذلك طائفة من المتسمين بسمة العلم والدين وايدوهم بحكايات وروايات موضوعة — وقد يشاركونهم في الاستغلال والدجل — حتى افسدوا على الناس عقائدهم وصرفوهم عن العلم النافع والعمل المفيد . فجاء القرآن يقرر فساد ذلك كله على لسان الجن انفسهم : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون الى قومهم في العقيدة الفاسدة . عقيدة ان الجن يعلمون الغيب ، وان اناسا يستخدمونهم في ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الالهية من شر فيتقى او خير فيرتقب . ثم يعلنون ان الغيب لله وحده ، وان القرآن قصر علم الغيب على الله فلا يعلمه احد سواه : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو » . « قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا اعلم الغيب » . « وانا لا ندرى اشر اريد بمن فى الارض ام اراد بهم ربهم رشدا » .

ولنصغ اليهم وهم يتحدثون عن قدرة الله ، وعن العاقبة الطيبة لمن يؤمن بالله ، وعما كان بينهم من الاختلاف في العقيدة ، وعن مصير الجاحدين الظالمين : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا ، واما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » .

توجيهات

ثم تختم السورة — بعد حديث الجن الى قومهم بما سمعوا من الحق — بجملة توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم فتأمره ان يتمسك بدعوته ، وان يعلن عجزه وعدم قدرته على الخير او الشر ، وان السلطان عليه وعلى الناس لله وحده ، وانه لن يجد من دونه ملجأ يلتجئ اليه ، وانه مبلغ لرسالة ربه فقط ، وانه لا يدري متى ينزل العذاب الذى توعدهم الله به ان لم يؤمنوا وانه من الغيب الذى لا يعلمه الا الله لا يطلع على غيبه احدا من خلقه الا من ارتضى من رسول فانه يطلعه على ما اراد ثم يحفظه بجنده الالهى حتى يبلغ رسالته : « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم واحصى كل شيء عددا » .

هذه قصة الجن فى استماع القرآن والتأثر به وهداية قومهم اليه ، فهل تقف الشهوات والأهواء بالانس دون أن ينتفعوا بالقرآن — كما انتفع به الجن — وهم من جلدة الرسول ، تجمعهم وآياهم بيئة واحدة ، ورحم واحدة ، ونشأ واحدة ، وفى الحق أن فى قصة الجن وتأثرهم بالقرآن على هذا النحو هزة عنيفة لانسانية الجاحدين المستكبرين من الانس ، وفيها فوق ذلك من العبر ما يلتم الدجالين فى كل عصر ومكان حجر الحق الذى يفتت أمعاءهم ويذهب بكيدهم ويفسد عليهم أمرهم فى التسلط على عقول الضعفاء من الناس فاعتبروا يا أولى الأبصار .

سُورَتَا الْمَزْمَلِ وَالْمَدَّثَرِ

(*) ركزت سورة الملك عقيدة التوحيد ، وسورة القلم عقيدة الرسالة المحمدية ، وسورتا الحاقة والمعارج عقيدة البعث ودار الجزاء ، ثم أقامت سورة نوح الحجة التاريخية الواقعية على صحة الدعوة ، كما أقامت سورة الجن الحجة البالغة على ما أحدثه القرآن من عظيم الأثر في نفوس الجن ، وانهم فهموه وانتفعوا به وأرشدوا قومهم اليه ، وبذلك كله تركزت الدعوة في ذاتها ، وفي آثارها ، ولكن كل ذلك لا يكفي في تقبل الناس لها وانتفاعهم بها ، بل لابد لها مع هذا من لسان بين ، يحمله قلب قوى ، يدعو إليها ويعمل على نشرها والافتقار بها . وان الحق لابد له من قوة تحمله وتحميه ، وهو لا يقوم في ظل الراحة والسكون ، ولا في ظل العزلة والانكماش ، وانما يقوم :

أولا : باعداد النفس بتمرينها على تحمل المشاق وتكميلها بالفضائل التي ترسل عليها أشعة الأنوار الإلهية فتضيء لها السبل ، وتمدها بقوة تقتلع منها بواعث الحيرة والاضطراب ، وتزيح من أمامها العقبات ..

وثانيا : برسم المنهاج الواضح للدعوة الذي يأخذ بالنفوس من طريق الشر الى طريقها المهد ، وقد جاءت السورتان : « المزمّل والمدثر » ترشيدان الى ما يجب من هذين الأمرين لينجح الداعي في دعوته ويقوم بمهمته ، والكلمتان معناهما : « المتلف بالثياب » وقد يكون ذلك إشارة الى حالة حقيقية لجأ اليها النبي في بعض ظروفه . المتصلة بمفاجأة الوحي له ، أو بموقف القوم منه ، وقد يكون رمزا لحسالة الدعة والسكون والتفكير العميق في وسائل الدعوة التي كلفها وعلى كل فالنداء بهذا الوصف ينهض ، الهمة ، ويوقظ النفس ، ويحرك بواعث العمل ويضاعف التهيؤ لما يلقي من تعليم ..

يا أيها المزمّل

وقد تضمن النداء الأول : « يا أيها المزمّل » نهيه صلى الله عليه

(*) سورتا المزمّل والمدثر .

وسلم عن الدعة والسكون ، كما يكون من شأن المتهيب لعمل لم يعهده ، ولا يعرف قدرته عليه ، وتضمن ارشاده الى تقوية قلبه عن طريق قيام الليل ومناجاة ربه واستشعار عظمته ، فيستمد بها الحول والقوة ، والى تلاوة القرآن وتدبر الوحي الذى يلقي عليه تدبرا يملأ روحه ايمانا وقوة ، والى مشقة المهمة وصعوبة الدعوة لى يبذل لها ما تستحق من العناية ، ولتهون على نفسه الصعاب حينما تصادفه وتتصل بدعوته ، والى توزيع الاعمال على الاوقات ، فيقوم فى كل وقت بالعمل الذى يكمل فيه وينضج ، فالليل للعبادة والقراءة والذكر ، والنهار للدعوة والتقلب بين الناس للارشاد والتعليم ، واقرأ فى ذلك كله قوله تعالى : « يا أيها المزمّل ، قم الليل الا قليلا » الى قوله : « واذكر اسم ربك وتبطل اليه نبتيلا » .

يا أيها المدثر

ثم يجيء النداء الثانى : « يا أيها المدثر » فينزع مرة أخرى من هموم نفسه وحيرته فى هداية قومه : يطرد عنه اليأس ويوجهه الى العمل ومباشرة المهمة : « قم فأنذر » ثم يجمع له أطراف المهمة فى كلمات قصيرة هى فى عظم معناها وضخامته أشبه بالقنابل الثقيلة تقذف معسكرات الشرك والطغيان ، وتبيد جرائم الفسوق والعصيان : « وربك فكبر » لا يكن فى قلبك مثقال ذرة من خوف غيره أو عظمة سواه ، وهذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الوهم : « وثيابك فطهر » وهذا تحرير للنفس من قيود الأخلاق الذميمة .. « والرجز فاهجر » وهو تحرير للجوارح من قيود المعاصي والذنوب . وإذا كان الانسان عقلا ونفسا وجسدا ، وكان كل فساد أو صلاح منشؤه العقل أو النفس أو الجسد ، فتلك ارشادات ثلاثة تطهر القوى الثلاث من كل شر ، وتجعلها خالصة لكل خير .

ولما كان ما تضمنه النداءان ، من وجوه الاعداد النفسى ، ونواحي العمل فى مهمة الرسالة ، يحتاج فى تحقيقه الى استعانة خاصة وجهاد قوى ، جاء عقب كل منهما فى السورتين تخصيص الصبر من بين الأخلاق بالذكر والعناية ، فتقول الأولى بعد الارشاد الى وجوه الاعداد « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وتقول الثانية بعد الارشاد الى نواحي العمل : « ولربك فاصبر » .

للمكذبين عاقبة سيئة

ثم تأخذ السورتان ، كل بأسلوبها الخاص ، في شدد صلى الله عليه وسلم بتهديد المكذبين ، وبيان ما أعد لهم عند من العاقبة السيئة والعذاب الاليم فتقول الأولى : « و المكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، ان لدينا انكالا وجحيما ، ذا غصة وعذابا أليما ، يوم ترجف الأرض والجبال وكانت كثيبا مهيلا » . . الى أن تقول : « فكيف تتقون ان كفرتم يوما الولدان شييا » وتقول الثانية : « فاذا نقر في الناقور ، فذلك يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ، ذرني ومن خلقت وح جعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا يطمع ان أزيد ، كلا ، انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعود

وصف الجحيم

ثم تأخذ في وصف الجحيم بما يذيب النفوس ويبدد نياط القل وتختتم الأولى « المزل » بارشاد المؤمنين ، دعاء الحق ، والمنا بالحق ، الى ما يحفظ لهم عز الحياة ، وسعادة الآخرة : « وما ت لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجرا » . . الثانية بتسجيل نكبة المعرضين عن الحق واعترافهم على أنذ بالكفر والطغيان ، والقسوة على الفقراء والمساكين : « قالوا من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائض وكنا تكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شم الشافعين . . » الى أن تقول : « كلا بل لا يخافون الآخرة انه تذكرة ، فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله هو التقوى وأهل المغفرة » .

أما بعد ، فهاتان سورتا الاعداد والعمل ، فمن شاء أن الى السعادة فليعد نفسه بما رسمت سورة المزل ، وليعمل أساس مما رسمت سورة المدثر ، وليتذرع بالصبر والاخلاء وليسر بنفسه وأمته في ضوء تلك التعاليم المنبعثة عن الرب ، بطيات النفوس ، الرحيم بخلقه ، والله للعاملين المخلصين نعم ونعم النصير .

سورة القيامة

(*) كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الإنكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية ، وكثيرا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون انها براهين تحيل وجودها ، وتمنع التصديق بها : « اذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » . « من يحيى العظام وهى رميم ؟ » . « ومتى هذا الوعد ان كنتم صادقين » وكان القرآن يلاحقهم في ذلك بانذاراته المتكررة ، وتأكيده المتعددة ، وبراهينه الحية الواضحة ، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها ، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عنيت بتأكيد هذه السور ، ففيه الواقعة ، والغاشية ، والحاقة ، والقارعة ، وفيه التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والزلزلة ، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن الا قد عرضت لتلك العقيدة في ناحية من نواحيها .

ثمرة الايمان بالجزاء

والواقع ان الايمان بالجزاء اقوى ما يغرس في النفس الايمان بالحق ، والايمان بالفضائل ، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر . وهذه سورة القيامة تجيء بعد سورة المدثر التى سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على انفسهم بالكفر والجحود ، فتؤكد أمر القيامة ، وأن تحققها ، في وقتها الذى يعلمه الله ، أمر بين لا يحتاج الى قسم : « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

واذا كان من سنة الله في القرآن انه لا يقسم في موضع الحاجة الى القسم الا بما عظم خطره في مخلوقاته ، ودلت العبارة على أن القيامة لا يحتاج في ثبوتها الى قسم بها عليها ، ولا بالنفس اللوامة عليها — كان في ذلك ارشاد الى أن القيامة وكذا النفس

(*) سورة القيامة .

اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرا ، وأقواها أثرا ، وأظهرها وجودا ،
وفي هذا تقرير لتحقيقها ووجودها .

النفس اللوامة

وفي ضم القسم بالنفس اللوامة الى القسم بيوم القيامة ارشاد
آخر الى مكانة هذه النفس التي لا تترك صاحبها عند درجة يلام
عليها ، بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال ، فهي
على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا ، وتدفعه الى الدرجات
العلا ، حتى يعتلى أشرف المنازل في هذا اليوم الخطير ..

ابطال دواعي الانكار

وبعد هذا الاستدلال المملوء بالوان من التأكيدات ليوم القيامة ،
تأخذ السورة في إبراز ما احتوت عليه نفس الانسان الجاحد من
الظنون والأوهام التي زينته له الانكار والجحود « أحيى الانسان
أن لن نجمع عظامه ؟ » . ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه
من جذوره : « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » . قادرين على
جمع عظامه ، وإعادة تركيبه الى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقى ،
وهو تسوية البنان والأطراف ..

ثم تبرز السورة شأنا آخر — كان له أثره في انكار البعث والقيامة
— غير ظن العجز عن الاعادة : تغلبت على الانسان شهوته ،
واندفع بها في لذته فتنى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده
فيكون حرا طليقا فيما يشتهي : « بل يريد الانسان ليفجر أمامه » .
فلم ينكره نزولا عن برهان ، وإنما هو محاولة التغلب من سلطان
التكليف والمؤاخذه ، ولقد أبعد في ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين :
« يسأل أيان يوم القيامة » وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من
الآهوال التي تحيط به ، والتي لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه :
« فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول
الانسان يومئذ : أين المفر ؟ .. كلا لا وزر ، الى ربك يومئذ
المستقر » ..

وهنا تقدم له صفح أعماله ونياته فينبأ بما قدم وأخر ،
بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه ، وعندئذ يحاول أن يخلص

من صحيفته ، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه ، فيعلن بأن الأمر في ذلك ليس اليه وإنما هو الى الله صاحب الشأن في عرض الأعمال واظهار السيئات : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه ، لماذا قرأناه فاتبع قرآنه » .

ثم تبرز السورة من نفس الانسان داعيا آخر لانكار البعث ، وهو محبة الدنيا التي تطمس عليه جانب الآخرة : « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » . .

وهنا تعرض السورة ان الناس في هذا الموقف أبرار وفجار : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » ثم تحذرهم الركون الى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم ، ويعجز الطبيب والكاهن . ويرى مشهد الفراق : « والتفت الساق بالساق الى ربك يومئذ المساق » . وهنا يسمع اسباب أحزانه « فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى » ثم ذهب الى أهله يتمطى « يختال ويتكبر » .

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل

ثم تختتم السورة بتقرير القدرة على الاعادة ، وانها من نوع القدرة على الخلق الأول ، وان الاعادة لتحديد المسئوليات ، والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالانسان وتكريمه ، وانه لا يمكن — وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع — أن يتركه سدى وهما كالعجاوات دون حساب ولا جزاء : رسم له شرائعه ، ووهب قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، وأنشأه عاملاً قويا مفكر من مويهة قذرة ، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به في حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلا بد له اذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله ، وهو ذلكم اليوم الموعود : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

آمنت بالله العظيم . .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . .

فهرس

صفحة	
٥	مقاصد القرآن
٩	سورة الفاتحة
١١	سورة البقرة
٢٧	سورة آل عمران
٣٢	سورة النساء
٤٥	سورة الانعام
٥٥	سورة الاعراف
٦٣	سورة يونس
٧٢	سورة هود
٨٠	سورة الكهف
٨٦	سورة مريم
٩٤	سورة طه
١٠٠	سورة النمل
١٠٣	سورة القصص
١١٤	سورة العنكبوت
١٢٠	سورة غافر
١٢٥	سورة فصلت
١٣٣	سورة الشورى
١٣٨	سورة المائدة
١٤١	سورة القلم
١٤٥	سورة الحاقة
١٤٩	سورة المعارج
١٥٢	سورة نوح
١٥٦	سورة الجن
١٦٠	سورة المزمل والمدثر
١٦٣	سورة القيامة

مطابع الشروق

بكرويت : م.ب. ٨٠٦٤ - فاكس : ٣١٥٨٨٩ - ٣١٥١٠١ - برقة ، ماسرىق - تلکون ، SHOROK 20175 LE
القاهره : ١٦ شارع جريدهي - فاكس : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقة ، شروق - تلکون ، 83081 SHROK UN

